الوحدة الأولى: مدخل مفاهيمي إلى الأنثروبولوجيا.

يجمع الباحثون على أن الأنثروبولوجيا علم حديث العهد إذا ما قيس ببقية العلوم الأخرى، حيث لم تستقل الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، ورغم حداثتها إلا أنها حجزت لنفسها مكانة هامة بين العلوم اليوم، نظرا لما تثيره من إشكاليات وتساؤلات مثيرة، ولما تتمتع به موضوعاتها من جاذبية وإغراء.

أولا- مفهوم الأنثروبولوجيا:

1/ المدلول اللغوي للأنثربولوجيا:

كلمة أنثروبولوجيا هي كلمة إنجليزية "**Anthropology**" أو فرنسية "**Anthropologie**" يونانية الأصل والاشتقاق مكونة من شقين أو مقطعين، الشق الأول "**Anthropos**" ومعناه **الإنسان**، الشق الثاني "**Logos**" ومعناه **علم** أو **دراسة** أو **خطاب** أو **بحث**؛ فعند جمع معنى الشقين يصبح معنى مصطلح الأنثروبولوجيا هو "**علم الإنسان**" أو العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان.

2/ المدلول الاصطلاحي للأنثربولوجيا:

– **المعنى الفلسفي للأنثروبولوجيا:** يصفها على أنها علم وصفي للإنسان، علم يهتم بدراسة الإنسان من حيث قيمه (قيم جمالية، دينية، أخلاقية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية) ومكتسباته الثقافية.

– تعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان وأعماله، أي منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان، فالأنثروبولوجيا هي أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولًا على الإطلاق. فهي تدرس الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية من جهة، وتدرس سلوكه كعضو في المجتمع من ناحية أخرى، ولا تقتصر على دراسة مجموعات معينة من البشر أو حقب معينة من الحقب التاريخية، بل تهتم بالأشكال الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامها بالأشكال المعاصرة، فهي تدرس تطوّر البشرية ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وجدت عنها أية سجلات أو بقايا.

دراسة الإنسان (البشر) في أي مكان في العالم وفي أي زمان (اليوم، بالأمس، وعبر التاريخ)/ محاولة فهم الصورة الكبرى للسؤال: ماذا يعني أن تكون إنسانًا؟

– وتعرف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً؛ أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه، يحيا في مجتمع معيّن له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.

– علم الإنسان يتناول بالدراسة الجانب البيولوجي للإنسان باعتباره كائنا عضويا، فيصف تركيبته العضوية في الحاضر والغابر، ويقارن بين الخصائص الطبيعية لإنسان اليوم مع إنسان الحضارات القديمة، وبين السلالات البشرية المختلفة، كما يقارن بين خصائص الإنسان وتركيبته البيولوجية وبين خصائص وتركيبة باقي الكائنات الأخرى. / كما يركز من جانب آخر على البناء الاجتماعي، محاولًا فهم مختلف البنيات المكونة له والتي تتجسد في مختلف النظم والمؤسسات الاجتماعية كنظام الأسرة والدين والقرابة والزواج...الخ، وهذه النظم المشكلة للبناء الاجتماعي هي الموضوع الأساسي

للأنثروبولوجيا في جانبها الاجتماعي، أما الجانب الحضاري (الثقافي) فهو يشير إلى محاولة فهم ثقافة الشعوب بوصفها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر.

فأغلب التعاريف تجمع على أن الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان دراسة شاملة من زوايا ثلاث، الزاوية البيولوجية من خلال البحث عن أصل الإنسان وتطوره من الناحية العضوية والبيولوجية ومقارنته مع بقية الكائنات المشابهة وغير المشابهة له، الزاوية الاجتماعية باعتباره كائنًا اجتماعيا يعيش في جماعة أو مجتمع يتفاعل معهم ويؤثر فيهم ويتأثر بهم، والزاوية الثقافية باعتباره الكائن الوحيد القادر على صنع وإبداع الثقافة ونقلها بين المجتمعات والأجيال المتعاقبة.

3/ التسميات المختلفة للأنثربولوجيا:

– يعود أول استعمال لمصطلح قريب من الأنثروبولوجيا على الإطلاق للفيلسوف اليوناني أرسطو الذي استخدم كلمة "**الأنثروبولوجوس**" والذي يعني في اللغة اليونانية الكلاسيكية "الثرثرة"، فيما يذهب العلامة الإنجليزي "هادون" إلى أن أرسطو قد استخدم المصطلح للدلالة على الشخص الذي يتحدث عن نفسه.

– وفي عام 1501 ظهر هذا المصطلح كعنوان لكتاب المفكر Hundt الذي تكلم فيه عن خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية، وظهر هذا الاصطلاح أيضا في كتاب "L'Anthropologia" للمفكر Copella سنة 1533، يدرس الكتاب الصفات الشخصية الفردية، وظهر اصطلاح أنثروبولوجيا لأول مرة في اللغة الإنجليزية سنة 1655 في كتاب غير معروف مؤلفه بعنوان "Abstracted ,Anthropology" وموضوعه الطبيعة البشرية، وأخذ استعمال المصطلح ينتشر تدريجيًا إلى أن أصبح له مفهوم واضح في القرن التاسع عشر.

– من جهته، يذكر الباحث الفرنسي **جان بواريه J. Poirier** أن كلمة الأنثروبولوجيا ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن 18 لتعني **دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان**، وحسب بواريه أيضا فإن عالم الطبيعة الألماني "**جوهان بلومينباخ**" هو أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه المعنون بـ "**عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر**" الصادر سنة 1795، ويذكر بواريه أيضا أن الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط** أشاع استخدام هذا المصطلح بعد صدور كتابه "الأنثروبولوجيا من منظور علمي".

– ويعود أصل كلمة أنثربولوجيا في اللغة العربية إلى النقل الحرفي للكلمة من اللغتين الفرنسية والانجليزية، وقد جاء هذا النقل الحرفي تفاديًا لأي لبس أو غموض قد يشوب العلم أو أي تشابه أو تداخل مع غيره من العلوم؛ فيما تفضل بعض المراجع تعريب المصطلح وترجمته إلى اللغة العربية، فنجدها تستعمل مصطلح **علم الإنسان** للدلالة على الأنثروبولوجيا.

– فالشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية تطلق تسمية علم الأنثروبولوجيا على علم الإنسان وأعماله، بينما يطلق المصطلح ذاته (أي الأنثروبولوجيا) في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنجليزية على دراسة الخصائص الجسمية للإنسان. ففي إنجلترا مثلا، يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص إلى دراسة الشعوب البدائية. أما في أمريكا، فيرى العلماء أن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة. في حين أن علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح **دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية (البيولوجية)**. إن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة **الأنثروبولوجيا الثقافية** يصطلح الفرنسيون على الإشارة إليه **بالإثنولوجيا** أو **الإثنوغرافيا** في بعض الأحيان، وهم

يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع. وفي ألمانيا، يقصد بالأنثروبولوجيا **الدراسة الطبيعية للإنسان**، بينما تستخدم كلمة **إثنولوجيا** للإشارة إلى علم الشعوب.

– بينما في الاتحاد السوفياتي ومعه أغلب دول شرق أوروبا، يشيع استخدام مصطلح **الإثنوغرافيا**، ومن أهم مجالات اهتمامها دراسة التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدائية.

– كما نجد من يستعمل مصطلح **الأناسة** أو **علم الأناسة** الذي يستعمل للدلالة على دراسة الإنسان بصفته كائن ينتمي إلى العالم الحيواني، وباعتباره الوحيد من بين هذه الكائنات القادر على صناعة الثقافة وإبداعها، ويوظف البعض الآخر مصطلحي **النياسة والأناسة** في مرحلة تفسير المعطيات الأنثروبولوجية ومعرفة الإنسان معرفة إجمالية.

ثانيا- الأنثربولوجيا والمفاهيم القريبة منها "الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا و الإثنوغرافيا":

يتداخل ويتشابك مفهوم الأنثروبولوجيا مع بعض المفاهيم الأخرى إلى حد يصعب فيه التفريق بينها لدى الكثير من الطلبة والباحثين، ومن بين هذه المفاهيم:

1/الإثنوغرافيا: كلمة يونانية الأصل مركبة من لفظة **إثنوس** "**Ethnos**" وتعني الأقلية أو الشعب أو القبيلة أو العشيرة، ولفظة غرافس "**Graphes**" وتعني الوصف والتصوير ليصبح المعنى الدراسة الوصفية للشعوب.

– والإثنوغرافيا (الإثنوجرافيا) تعني في مدلولها الاصطلاحي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. فالإثنوغرافيا تسعى إلى رصد المعلومات من خلال **الدراسة الوصفية** للمجتمعات والثقافات المختلفة، وعادة ما يتم البحث الإثنوغرافي على مجتمعات محلية صغيرة الحجم غالبا. وعادة ما تقتصر الإثنوغرافيا في دراساتها على الناحية الوصفية دون تقديم تفسير أو تحليل لها.

2/الإثنولوجيا: كلمة يونانية الأصل كذلك مركبة من لفظة **اثنوس** "**Ethnos**" أي الأقلية أو الشعب أو القبيلة أو العشيرة، ولفظ **لوغوس** "**Logos**" ويعني الدراسة أو العلم ، ليصبح المعنى هو **علم الشعوب**. وهناك من يسميها أيضا أناسة الثقافة أو علم السلاليات أو النياسة.

– وتعرف على أنها "الدراسة التاريخية والمقارنة للثقافات أو الشعوب، تمثل **السلالة** وحدة الدراسة الأساسية فيها، وتعرف أيضا على أنها الدراسة التحليلية والمقارنة للسلالات والشعوب، وموضوعها هو دراسة منتجات الإنسان سواء المادية أو غير المادية، إضافة إلى دراسة العوامل التي تحدد عمليات استعارة هذه المنتجات وانتشارها بين الشعوب.

– ففي بداية الأمر، كانت الإثنولوجيا تهتم بوصف وتصنيف الصفات الجسمية المتشابهة والمتباينة للسلالات البشرية، وظل هذا الاستخدام سائدًا حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لينتقل بعدها من دراسة السلالات البشرية أساسًا إلى التركيز على الثقافات والحضارات الإنسانية من جهة وإلى دراسة النظم الاجتماعية للمجتمعات غير الأوروبية من جهة أخرى.

– وقد اهتمت الإثنولوجيا في بداياتها **بدراسة المجتمعات** "**البدائية**" أو ما يعرف **بالآخر**، حتى هناك من أطلق عليها تسمية علم دراسة الآخر، وجعل البعض يتساءل هل ستختفي الإثنولوجيا مع زوال البدائيين في النصف الثاني من القرن العشرين.

– تعرف الإثنولوجيا على أنها **علم الشعوب وثقافاتهم وتواريخ حياتهم**، فتهتم برصد العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبين الكائنات البشرية وثقافاتها، والعلاقات المتبادلة بين الثقافات المختلفة، وتقوم على **الدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافية** بغرض الوصول إلى تعميمات حول مختلف النظم وأصولها وتطورها وتنوعها. وعليه فإن الإثنولوجيا تستفيد عمليا من البيانات التي تزودها بها الإثنوغرافيا، ليقوم الباحث الإثنولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات والثقافات في مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة وتحليلها، واستخلاص المبادئ منها، فهدف الإثنولوجي هو الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية ولظاهرة التغير الحضاري والثقافي.

- ورغم وضوح مفهوم **الأنثروبولوجيا** إلا أن استخداماته تختلف من بلد لآخر ومن مدرسة لأخرى، لذلك قد يجد الباحث تداخلات بينه وبين المفاهيم سابقة الذكر. ويمكن إيضاح ذلك بإيجاز في النقاط التالية:

✓ ففي أمريكا نجد استخدامين أساسيين لمفهوم الأنثروبولوجيا هما: **الأنثروبولوجيا العضوية (الفيزيقية)** للإشارة إلى دراسة الجانب العضوي والحيوي للإنسان؛ **الأنثروبولوجيا الثقافية** للإشارة إلى دراسة النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. ويدخل في نطاق الأنثروبولوجيا الثقافية مجموعة من الفروع الدراسية وهي: **علم اللغويات، الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، علم الآثار**.

✓ وفي مقابل الأنثروبولوجيا الثقافية الذي يتداوله الأمريكيون يستخدم البريطانيون مصطلحا آخر هو مصطلح "**الأنثروبولوجيا الاجتماعية**" تهتم بدراسة **البناء الاجتماعي**؛ ورغم ذلك فالاختلاف في تحديد التسمية هو اختلاف شكلي فحسب، فكل من الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تؤولان إلى نفس المواضيع خلال عملية الدراسة فالاختلاف بين ما هو "**اجتماعي**" وما هو "**ثقافي**" ليس اختلافًا كبيرًا.

✓ بينما في فرنسا وحتى القرن التاسع عشر كان الفرنسيون يميلون أكثر إلى استخدام مصطلح الإثنولوجيا ومرافقتها الإثنوغرافيا للتعبير عن الجانب الثقافي وكثيرا ما يدرسونه تحت مظلة علم الاجتماع .

وعلى العموم فإن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية (الأنجلوساكسونية) جميعها تطلق على علم الأنثروبولوجيا "**علم الإنسان وأعماله**" بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالانجليزية على "**دراسة الخصائص الجسمية للإنسان**".

مخطط يوضح دلالات الأنثروبولوجيا حسب المدارس المختلفة:

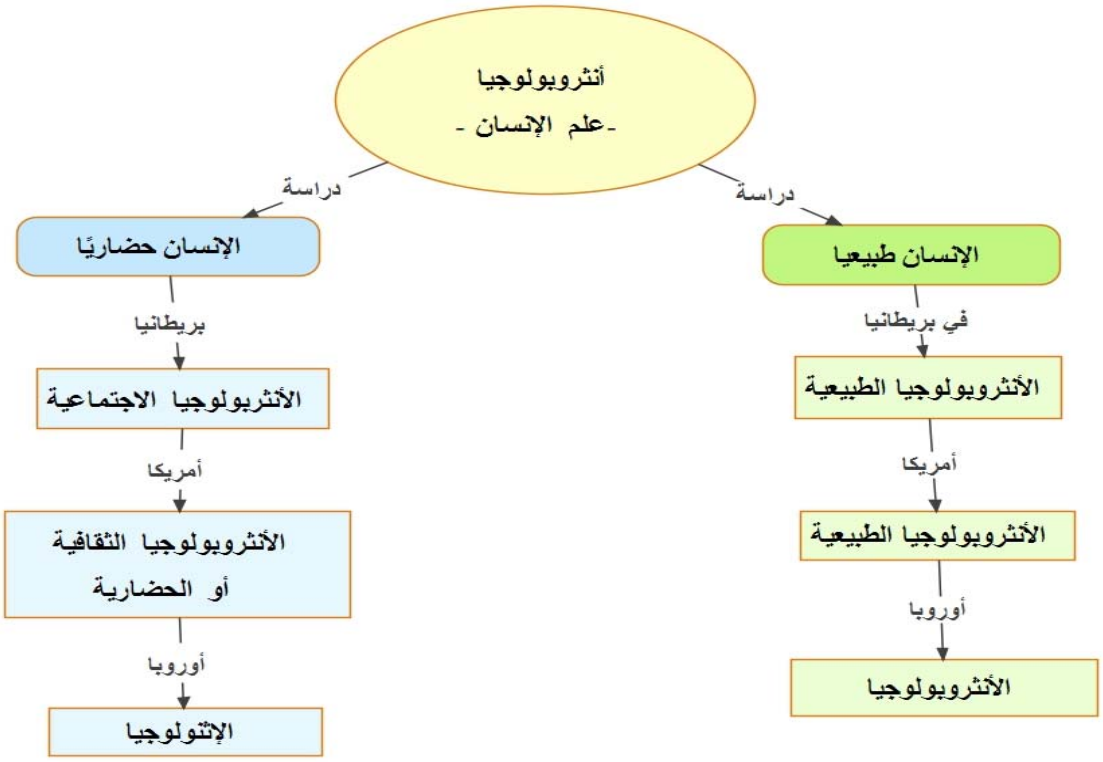

باختصار يكمن الاختلاف بين هذه المفاهيم والمصطلحات في الاختلاف في استعمالها بين المدارس الأنثروبولوجية المختلفة، حيث كان الأمريكيون يرون أن كل من الإثنوغرافيا والإثنولوجيا فرعان من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، بينما اعتمد الفرنسيون على مصطلح الإثنولوجيا للدلالة على الأنثروبولوجيا (خاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية) وكانت تحت عباءة ومظلة علم الاجتماع؛ في حين ترى النظرة المعاصرة أن كل من الإثنوغرافيا والإثنولوجيا هما مرحلتان من مراحل البحث الأنثروبولوجي، حيث تختص الإثنوغرافيا بجمع المعطيات وتكتفي بالوصف، ثم تقوم الإثنولوجيا بتنصيف وتحليل وتفسير المادة الإثنوغرافية التي تم جمعها في المرحلة الأولى، لتصل إلى النتائج والتعميمات النظرية.

3/ علم الآثار (الأركيولوجيا) Archeology:

يدرس **ماضي الإنسان**، ويرمي **إعادة بناء صورة** عن الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ، ويعتمد علم الآثار في دراساته على **البقايا** التي خلفها الإنسان والتي تمثل حضارته، ويدرس المعلومات عن الثقافات البشرية التي يمكن الوصول إليها من التنقيب الواعي عن المساكن القديمة والنصب والأشياء الفنية والأدوات والأسلحة وأعمال الإنسان الأخرى التي غطتها أتربة الزمن. فالأركيولوجيا تبحث في الماضي البعيد أو السحيق –الذي قد يصل إلى ملايين السنين– للبشر والمجتمعات الإنسانية، والتي لم يصلنا حولها معلومات من خلال المؤلفات أو المخطوطات (حين لم تكن الكتابة قد اخترعت بعد)، وذلك من أجل إعادة تشكيل صورة تقريبية تساعدنا على فهم كيف كان يعيش أجدادنا حينها، من خلال التنقيب عن آثارهم ومخلفاتهم.

– وينقسم علم الآثار إلى قسمين أساسيين: **علم الآثار الكلاسيكي وعلم آثار ما قبل التاريخ**. يهتم الأول أساسا بدراسة الحضارات اليونانية والرومانية القديمة، بينما يتناول الثاني مجالًا أوسع من الناحية الزمنية والجغرافية، فهو يسعى لإعادة تركيب أساليب حياة الشعوب في كل أرجاء العالم منذ ظهور الإنسان وحتى حلول التاريخ المكتوب.

– وتميل المدرسة الأمريكية إلى تدريس علم الآثار كتخصص فرعي ضمن علم الأنثروبولوجيا (رفقة الأنثربولوجيا الطبيعية، الأنثروبولوجيا الثقافية واللسانيات)، بينما يدرس في أوروبا وباقي الدول كتخصص مستقل عن الأنثروبولوجيا، ولكن سواء تم اعتباره كفرع من الأنثربولوجيا أم لا، فإن علماء الأنثربولوجيا يعتمدون بشكل أساسي على علماء الآثار في دراسة ماضي الشعوب وفهم ثقافاتهم المختلفة وأصولها، ويرى البعض أن الأنثروبولوجي (الإثنولوجي) يبدأ من حيث ينتهي عالم الآثار.

4/ علم اللغويات (الألسنية) Linguistics:

– ترتبط كثيرا بعلوم وتسميات أخرى مثل علم اللغة واللسانيات أو الأنثروبولوجيا اللسانية أو الألسنية الأنثروبولوجية، حيث يستخدم علم اللغويات المنهج العلمي في دراسة اللغات، ويعتبر أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية (وفق المدرسة الأمريكية) لأن اللغة أهم عنصر من عناصر الثقافة.

– فالأنثروبولوجيا تهتم بدراسة الشعوب عبر لغتهم، فاللغة يمكن أن تخبرنا عن الشعوب الذين يتكلمونها، وهي الشيء الذي يجعلنا بشرًا، فبدونها لا يمكن للناس تبادل ونقل أفكارهم وتاريخهم ومعتقداتهم ومشاعرهم، فاللغة هي وعاء الثقافة والفكر، وفي دراستها؛ ينظر علماء اللسانيات (الأنثروبولوجيا اللسانية) إلى حاضر اللغات وماضيها، يبحثون في تاريخ تحدثها وكتابتها، البعض منهم يدرس كيف كانت اللغة عندما بدأ القدماء بتحدثها (أقدم شكل للغة)، والبعض الآخر يدرس كيف تطورت مختلف اللغات عبر الزمن، ويبحثون عن الروابط والصلات بين اللغات في مجتمعات مختلفة ومتعددة عبر أزمان متباينة، فاللغة عندها الكثير لتفصحه عن البشر. ونفس الكلام الذي قيل عن تدريس الأركيولوجيا في أمريكا وأوروبا ينطبق على اللسانيات أيضا.

ثالثا- موضوع الأنثروبولوجيا:

– إن موضوع هذا العلم هو **الإنسان**، بغض النظر عن الزمان أو المكان، فالأنثربولوجيا هي العلم الذي **يدرس الإنسان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور والأزمنة حتى يومنا هذا**، يدرس الإنسان في **كل مكان وزمان** وفي كل بقاع الأرض؛ يهتم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم، وكل ما ينتجونه سواء أكان شيئًا ماديًا أو علاقة اجتماعية أو فكرة عقلية أو ممارسة وطقسًا روحيًا.

– فتتخذ الأنثروبولوجيا من الإنسان بكل نواحيه موضوعا أساسيا لها، فإذا كان جسم الإنسان في ذاته ونشأته وتطوره هو موضوع الأنثروبولوجيا الفيزيقية، فبعض الأنثروبولوجيين يدرسون خصائص ومقاسات أجسام البشر ويصنفونها إلى سلالات معينة على أساس مقاييس وصفات جسمية محددة، ويدرسون الأصول الأولى للجنس البشري الحالي، فيبحثون عن أصول تلك العظام يصفونها ويحددون تاريخها بوسائل علمية دقيقة. فإن **علاقات الإنسان وسلوكه ومختلف التفاعلات التي تنتج عن اتصاله بالآخرين** هي موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وقد عمد الأنثروبولوجيون الأوائل إلى دراسة **المجتمعات البدائية** البسيطة في تركيبتها وثقافتها فكان المجتمع البسيط والذي وصف بالبدائي هو الموضوع الأساسي الذي وجهت إليه أنظار الأنثروبولوجيين، قبل أن يتجهوا لدراسة المجتمعات صغيرة الحجم وإن كان ذلك من حيث الزمان والمكان ضمن المجتمعات المعاصرة .

- وقد اختلفت وتعددت مواضيع الأنثروبولوجيا بتعدد ميادينها وفروعها ومدارسها الفكرية، وفيما يلي نحاول أن نورد بعض أهم هذه الموضوعات: ***الثقافة، البناء الاجتماعي، نظام القرابة، اللغة، الدين، الأساطير، النظام السياسي، النظام الاقتصادي***.....إلخ.

رابعًا/ الهدف من الدراسة في مجال الأنثروبولوجيا: تسعى الأنثروبولوجيا إلى تحقيق جملة من الأهداف تتمثل في:

– **فهم الطبيعة الإنسانية أو الطبيعة البشرية:** والمقارنة بين الإنسان وغير الإنسان، بين الماضي والحاضر، بين السلالات البشرية (هل هي طبيعة واحدة أم مختلفة؟).

– **تمكين الإنسان المعاصر من رؤية نفسه في المرآة من خلال دراسة تاريخ حياته ونظمه (المقارنة مع الماضي في مختلف الزوايا:** بيولوجيا، الأنظمة السياسية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية، نظم القرابة الحضارة،..الخ)، فهي هنا تشبه الجد الذي ينظر إلى حفيده ويرى فيه نفسه عندما كان صغيرًا.

– يسعى علم الإنسان إلى الإجابة على عدة أسئلة هامة: كيف سار التطور الإنساني من الناحيتين البيولوجية أو الحيوية والثقافية؟ وهل ثمة مبادئ عامة أو قوانين يخضع لها ذلك التطور؟ وما هي العلاقات الضرورية التي توجد بين الشعوب الماضية والشعوب الحالية من الناحية البيولوجية والجسمانية ومن ناحية اللغة والعادات والنظم والتقاليد؟ ولماذا يتميز الأفراد الذين يعيشون في مجتمع ما بنماذج للشخصية عن نماذج شخصية أفراد مجتمعات أخرى؟

– تفسير الكثير من مظاهر حياتنا الحالية والتي لا نستطيع فهمها إلا بالرجوع إلى دراستها في الماضي عند البدائيين، مثل: كيف يمكن تفسير لبس دبلة أو خاتم الخطوبة؟ كيف نفسر مظاهر الشعوذة والسحر التي لا زالت سائدة عند الكثير من المعاصرين؟ كيف نفسر مراسيم وعادات وتقاليد الزواج السائدة؟

– البحث في أصول الثقافات، من خلال البحث في أصول النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد.

– استخدمت الأنثروبولوجيا إبان نشأتها لخدمة الأغراض الاستعمارية للدول الاستعمارية الأوروبية، من خلال استغلالها في فهم الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لتسهيل السيطرة على الشعوب التي قاموا باستعمارها.

– تسجيل وتدوين عادات المجتمعات البدائية المعاصرة، في كتب ومجلات ومقالات وصور فوتوغرافية وأفلام وثائقية وأشرطة، وذلك لحفظ التراث الإنساني حيًّا على مر العصور المستقبلية والأجيال القادمة، وذلك قبل أن تضيع معالم تلك المجتمعات وقبل أن تختفي نتيجة الاتصالات المتناهية بينها وبين الشعوب المتحضرة.

الوحدة الثانية: الفروع والميادين الأساسية في الأنثروبولوجيا

علم الإنسان علم واسع وشامل يدرس مختلف جوانب الإنسان كما عرفنا سابقًا، من أصوله البيولوجية إلى ثقافته وسلوكه الاجتماعي. مما جعل اهتمامتها تتشعب وتتوسع كثيرا، الأمر الذي أدى إلى تفرعها إلى عدة فروع، كل فرع منها يتناول دراسة جانب أو جوانب معينة في هذا الكائن الفريد من نوعه "الإنسان" والوسط الذي يعيش فيه، وعلى العموم انقسمت الأنثروبولوجيا في بداياتها إلى ثلاثة فروع أساسية، قبل أن تتفرع عن هذه الفروع الأساسية فروع أخرى ثانوية، لكن سنركز خلال هذه الوحدة على الفروع الأساسية الثلاثة.

أولا. الأنثروبولوجيا الفيزيقية (الطبيعية/البيولوجية) "Physical Anthropology":

– تسمى أيضا: الأنثروبولوجيا الطبيعية أو العضوية أو البيولوجية أو الفيزيائية أو البيولوجيا البشرية، غير أن الشائع في اللغة العربية هو اسم **الأنثروبولوجيا الفيزيقية** والذي يستخدم كتعريب للمصطلح الإنجليزي« **Physical Anthropology** » . وتعتبر من أقدم فروع الأنثروبولوجيا وأعتقها، فهي تُعنى بدراسة الإنسان من حيث **تكوينه الجسدي ومراحل تطور بنيته البيولوجية والمورفولوجية** فلقد اهتمت **بدراسة أعضاء الجسم الإنساني** من حيث الوصف والقياس والبنية واللون والوزن والقامة وذلك قصد تحديد **أوصاف وأصول** السلالات البشرية و**مقارنتها** مع ما يشابهما في أماكن وأزمنة مختلفة.

– وتعرّف بوجه عام بأنها العلم الذي يبحث في **شكل الإنسان** من حيث سماته العضوية والتغيرات التي تطرأ عليه بفعل المورثات، كما يبحث في **السلالات البشرية الإنسانية**، من حيث الأنواع البشرية وخصائصها. كما تعرف بأنها العلم الذي يدرس الجوانب الفيزيقية للإنسان، فهي تدرس **تركيبه الجسماني والتطورات التي مر بها إلى أن حصل على صورته الحالية**، وكذلك **تنوعه بيولوجيا** وأسباب هذا التنوع واتجاهات التغير في كل من الأفراد والجماعات سواء في الماضي أو الحاضر، فهي تدرس **الإنسان الحالي** (كفرد وكجماعة سلالية) من خلال صفاته الظاهرية والجينية، وتدرس **الإنسان في العصور القديمة والحجرية والتارخية**، وتحاول دراسته في المستقبل في ضوء التغيرات الطارئة عليه من خلال متغيرات البيئة والعصور. وتحاول الأنثروبولوجيا الفيزيقية الإجابة على تساؤلات مثل: **متى وأين ظهرت أقدم الكائنات البشرية لأول مرة؟ كيف كانت هيئة تلك الكائنات البشرية؟ وكيف تتشابه أو تختلف بعضها عن بعض؟ كيف تغيرت السمات الفيزيقية للإنسان خلال الفترة التي عاشها على الأرض؟**

– إن الموضوع الأساسي في الأنثروبولوجيا العضوية (الفيزيقية) هو **الاختلاف البيولوجي** الذي يطرأ على الكائن الإنساني في الزمان والمكان. كما يهتم هذا الفرع بدراسة **السلوك البشري وسلوك أشباه البشر**، والعلاقة بين **الإنسان والبيئة** التي يعيش فيها، من خلال معرفة **كيف أثرت البيئة ولا تزال تؤثر في البناء الجسمي للإنسان**. وتذهب أبعد من ذلك حين تبحث في أثر كل من **العوامل الثقافية والاجتماعية على النواحي البيولوجية** للإنسان وبنائه الجسمي، فالشعوب التي تعيش منعزلة تتغير ببطء شديد في شكلها الجسماني، عكس التي تتصل مع شعوب عديدة متباينة جسمانيا، فيمكن أن تطرأ عليها تغيرات جذرية في البناء الجسمي خلال فترة زمنية أقصر نسبيا.

– فالبحث الأنثروبولوجي الفيزيقي يعني بدراسة أجزاء الجسم المختلفة وعقد الموازنات والمقارنات بين التركيبات والمورفولوجيات الجسمية للسلالات الإنسانية، فهو يدرس **الهيكل العظمي والعضلات ولون العينين ولون البشرة وشكل الرأس والشعر ولونه ونوعه وانتشاره على الجسم والأعضاء الداخلية** أي يقوم بدراسة مقارنة للمورفولوجيا الإنسانية والبناء الجسمي للإنسان من شتى السلالات.

– استعانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية بمجموعة من العلوم مثل **علم البيولوجيا وعلم التشريح، والأجنة، وعلم العظام، علم الأنسجة العضوية الحية، علم الوراثة، علم البناء الإنساني مقاييس حجم الإنسان، مقاييس حجم الأجسام الحية علم الجراحة الإنساني**...الخ.

بصورة مختصرة تعتبر الأنثروبولوجيا الفيزيقية أقدم فرع من فروع الأنثروبولوجيا ومن أهمها، تهتم بدراسة الإنسان من الزاوية البيولوجية أو العضوية (بصفته كائن عضوي وبيولوجي)، تدرس الإنسان من حيث تكوينه الجسدي وتطوره البيولوجي عبر العصور، تبحث في أصل الإنسان وسلالاته واختلافاته المورفولوجية والوراثية، وتقارن بينه وبين الكائنات الأخرى من الناحية العضوية خاصة مع الرئيسيات (التي تعتبر أقرب الكائنات إلى الإنسان من الناحية البيولوجية)، كما تدرس علاقة الإنسان بالبيئة وتأثيرها في بنيته الجسدية وسلوكاته، تستعين بعلوم أخرى مثل البيولوجيا، التشريح، الوراثة وعلم العظام لفهم كيفية نشوء الإنسان وتنوعه، وتربط بين الطبيعة البيولوجية للإنسان والثقافة لتفسير تطور الإنسان في الماضي والحاضر.

– وبدورها تنقسم الأنثروبولوجيا العضوية إلى فرعين أساسيين هما: **علم الحفريات البشرية** "**Paleontology**": يهتم بدراسة الجنس البشري منذ نشأته، ومن ثم مراحله الأولية وتطوره، بالاعتماد على ما تدل عليه الحفريات والآثار المكتشفة، والتي تكشف عن بقاياه وآثاره وما خلفه من وسائل وأدوات، ومحاولة تحليل الأسباب التي أدت إلى حدوث تغيرات مرحلية في شكل الإنسان إلى أن أصبح كما هو عليه الآن. **فرع الأجناس البشرية أو الأجسام البشرية** "**Somatology**": يهتم بدراسة الصفات العضوية للإنسان البدائي (المنقرض) والإنسان الحالي، من حيث الملامح الأساسية والسمات العضوية العامة، لذلك يركز الأنثروبولوجيون في هذا الفرع جل اهتمامهم على دراسة الأصناف البشرية ورصد الفروقات بينها ومحاولة معرفة الأسباب الكامنة وراءها، وعلى تصنيف الأجناس البشرية المختلفة على أساس السلالة والعرق.

ثانيا . الأنثروبولوجيا الثقافية "Cultural Anthropology":

– وتعّد الأنثروبولوجيا الثقافية التراث المسيطر على الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة، ومصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية في معناه الواسع يتضمن كل من علم آثار ما قبل التاريخ واللسانيات بالإضافة إلى الدراسة المقارنة للثقافات والمجتمعات الإنسانية، بينما يقتصر في معناه الضيق على دراسة الثقافات والمجتمعات الإنسانية فقط. ويدرس هذا المجال في بريطانيا عادة تحت تسمية الأنثروبولوجيا الاجتماعية نظرًا للاهتمام البريطاني التقليدي بالبناء الاجتماعي الذي يقابل الاهتمام الأمريكي بمفهوم الثقافة.

– يدرس هذا الفرع **الثقافة**، والمعنى المبسط لمفهومها هو **طريقة معيشة مجتمع ما**، سواء كان ذلك المجتمع بدائي أو نامي أو متقدم، إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي الثدييات والمملكة الحيوانية جميعا، حيث يرى الكثير أن جميع الخصائص العضوية والانفعالية مشتركة بين الإنسان والحيوان، والذي يميزها عن بعضها

البعض هي الثقافة كإنتاج حضاري يختص به الإنسان فقط. وكان لتطوير مفهوم الثقافة على يد إدوارد تايلور أكبر أثر في تنظيم موضوعات الأنثروبولوجيا الثقافية في إطار واحد، فهي المركز الذي تنتظم حوله معظم الظواهر التي ترتبط من قريب أو من بعيد بالإنسان. وفي أشمل تعريف تعرف الثقافة على أنها "**الكل المتكامل لأنماط السلوك المكتسبة التي يأخذ بها معظم أفراد مجتمع معين**"، يجمع هذا التعريف كل أنماط السلوك التي يكتسبها الفرد في المجتمع الذي ينتمي إليه، منها أنماط السلوك التي تمثل **علاقة الإنسان بالمادة** مثل أسلوبه في بناء مسكنه وفي ملبسه وفي الأدوات والآلات والأسلحة التي يستخدمها، فإن كل عنصر مادي من صنع الإنسان ويطبق بصورة جماعية يعد جزءًا من الثقافة. ومنها أنماط السلوك التي تمثل **علاقة الإنسان بأخيه الإنسان**، أي النظم الاجتماعية مثل اللغة والاقتصاد ونظم القرابة والعائلة والسياسة والدين والأخلاق والعادات والتقاليد والآداب العامة والفنون. إضافة إلى أنماط السلوك التي تمثل **علاقة الإنسان بعالم الأفكار** مثل المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها أفراد مجتمع معين. ومن هنا تظهر كثرة وتنوع الموضوعات التي تدخل ضمن إطار الثقافة والتي تمثل موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية.

– والواضح أن دراسة ثقافة أي جماعة أو مجتمع تتم على مستويين اثنين : **المستوى الأول** هو ما يعرف **بالدراسة المتزامنة** والتي تشير إلى دراسة المجتمعات وثقافتها في فترة معينة من تاريخها. أما **المستوى الثاني** فهو ما يعرف **بالدراسة التتبعية** والتي تشير إلى دراسة المجتمعات وثقافتها خلال عملية تطورها بتعقب مختلف مراحلها عبر التاريخ.

– الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالمقارنة بين مختلف الثقافات (أي اكتشاف أوجه التشابه والاختلاف بينها) في الماضي والحاضر، بغية الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم نمو الثقافات وتطورها وانتشارها.

– في المدرسة الأمريكية تنقسم الأنثروبولوجيا الثقافية إلى بعض الفروع الدراسية الجزئية مثل الإثنوغرافيا والإثنولوجيا وعلم الآثار واللغويات، وهذه الفروع تصنف باعتبارها تابعة للانثروبولوجيا الثقافية، فبالإضافة إلى الإثنوغرافيا والإثنولوجيا يعتمد الباحث في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية على علم الآثار (الأركيولوجيا) بهدف الوصول إلى حقائق عن ثقافات الشعوب الغابرة التي لا تتوفر عنها معلومات مسجلة عن طريق الكتابة، ويعتمد علم الآثار على بقايا الإنسان القديم والتي تدل على ثقافته وتكشف عن الكثير من المعلومات المتصلة بثقافة هذا الإنسان واتصالاته المختلفة، ووسائل عيشه التي تدل على مستوى العيش والتفكير لديه، ومن هذه الآثار يمكن الحديث عن الآثار الصخرية والأواني الفخارية والأقواس والسهام القديمة. ..الخ، هذه التي تدل على عناصر الثقافة المادية والتي تسلم أيضا إلى مستوى وطريقة تفكير الإنسان القديم، ومن أجل هذا اعتبر علم الآثار أحد الفروع المهمة في الأنثروبولوجيا الثقافية. ولا يقل علم اللغويات عن علم الآثار باعتباره أحد الفروع المهمة كذلك للأنثروبولوجيا الثقافية، ذلك أن اللغة هي إحدى العناصر الأساسية للثقافة، وهي محل اهتمام الانثروبولوجين في محاولة وصفهم للشعوب والجماعات الإنسانية.

– وتهتم الأنثروبولوجيا الثقافية كذلك بدراسة السلوك الإنساني وما يترتب عنه من إنشاء نظم وعادات وتقاليد اجتماعية، فالسلوك الإنساني ينقسم إلى سلوك غريزي يتشابه فيه جميع البشر تقريبًا، وسلوك مكتسب عن طريق التفكير والتعلم والتمرن يختلف باختلاف المجتمعات والثقافات. إلى جانب اهتمامها بدراسة الأنماط الثقافية (طريقة الأكل، المشرب، الملبس، النوم، الاقتصاد، اللغة، السياسة، الزواج، الطلاق، الاحتفال، مراسيم الدفن، الطقوس...إلخ) أي نمط وأسلوب حياة الجماعات الإنسانية، فالثقافة هي نتيجة للحياة الاجتماعية هي ناتجة عن التجديد الإنساني. والاهتمام كذلك بدراسة أصل الثقافات والبحث عن هل أن جميع الثقافات تعود إلى أصل واحد؟ أم تنتمي إلى أصول متعددة ومختلفة؟

ثالثا. الأنثروبولوجيا الاجتماعية"Social Anthropology ":

– مصطلح يطلق على التراث المهيمن في الأنثروبولوجيا البريطانية، وذلك وفقا لتأكيد العلماء البريطانيين على مفاهيم مثل: المجتمع، البناء الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي، ولا شك أن هذه السيطرة لما هو "اجتماعي" ترتبط بمفكري النظرية البنائية الوظيفية أمثال راد كليف براون وفورتس، اللذان اعتمدا مع غيرهما من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين في عصرهم اعتمادًا كبيراً على نظريات دوركايم عن الظواهر الاجتماعية، وعن الاستقلال الذاتي للمجال الاجتماعي.

– وتختلف النظرة إلى الأنثربولوجيا الاجتماعية باختلاف المدارس الأنثروبولوجية، حيث يراها رواد المدرسة البريطانية كفرع مستقل للأنثروبولوجيا عامة شأنها شأن الأنثروبولوجيا الثقافية، على عكس المدرسة الأمريكية التي تنظر إليها باعتبارها فرعًا من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، على أساس أنها الفرع الذي يختص بدراسة جانب العلاقات الاجتماعية من الثقافة، أما في باقي أوروبا وخاصة فرنسا فإن ما يعرف في بريطانيا باسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، فإنه يعرف عندهم باسم الإثنولوجيا أو علم الاجتماع، في حين يجمع آخرون الفرعين في تخصص واحد تحت تسمية "الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية"، ولا يفرقون بين الفرعين رغم أن الفرق بينهما واضح.

– تهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتحليل البناء الاجتماعي ودراسته دراسة تفصيلية متعمقة، وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية المشكلة لهذا البناء، وتأثرت بشكل كبير بأفكار الأنثروبولوجي البريطاني راد كليف براون الذي يرى أن البناء الاجتماعي عبارة عن نظم اجتماعية تشكل نسيج متشابك العناصر يؤثر كل عنصر في العناصر الأخرى، وتعمل تلك العناصر مجتمعة على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع بالبقاء والاستمرار.

– كما تهتم بدراسة التفاعلات والتواصلات الاجتماعية بين الأفراد والمجموعات داخل المجتمعات البشرية. وتركز على فهم العلاقات والهياكل والبناءات الاجتماعية التي تحكم سلوك الأفراد. وتهدف إلى فهم كيفية تكوين المجتمعات وتغيرها عبر الزمن، وكيفية تأثير العوامل الاجتماعية على الفرد والمجموعة، كما يركز علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على فهم كيفية تفاعل الناس مع بعضهم البعض، وكيفية إنتاجهم ونقلهم للثقافة. ويستخدمون مجموعة متنوعة من الأساليب لدراسة المجتمعات، ودراسة سلوك البشر في سياقهم الاجتماعي.

– وقد ارتكزت الدراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بداياتها على المجتمعات البدائية، لكن منذ الحرب العالمية الثانية أخذت تدرس المجتمعات الريفية والحضرية في الدول النامية والمتقدمة فتدرس البناء الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، والنظم الاجتماعية مثل العائلة، والعشيرة والقرابة والزواج والطبقات والطوائف الاجتماعية والنظم الاقتصادية كالإنتاج والتوزيع والاستهلاك والمقايضة والنقود والنظم السياسية كالقوانين والعقوبات والسلطة والحكومة والنظم والعقائدية كالسحر والدين، كما تدرس النسق الايكولوجي، وهكذا يتركز اهتمام هذا الفرع بالقطاع الاجتماعي للحضارة، ويتميز بالدراسة التفصيلية العميقة للبناء الاجتماعي وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية.

- **موضوعات البحث الرئيسية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:** يدخل في دائرة اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية مجموعة من المواضيع الرئيسية مثل: **البناء الاجتماعي/ نظم القرابة/ نظم الزواج/ النظام السياسي/ النظام الاقتصادي/ العلاقات الاجتماعية/ التنظيم الاجتماعي/التغير الاجتماعي.**

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأقسام ليست منعزلة تماما إذ أن التداخل حاصل بينها، فالأنثروبولوجيا الطبيعية يمكن النظر إليها باعتبارها فرعا مكملا للفروع الأخرى، وهي تمثل الشق المادي في دراسة الإنسان الذي لا يمكن فصله بأية حال من الأحوال عن شقه الروحي الذي تعنى به الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، أما عن التفريق بين ما هو ثقافي وما هو اجتماعي في مجال الأنثروبولوجيا فله سياقه التاريخي والأكاديمي، لكن التفريق المطلق غير وارد تماما إذ أن ما هو اجتماعي يسلم إلى ما هو ثقافي والعكس، فالفرق فقط مثلما يرى كلود ليفي ستروس " في أسلوب الدراسة وليس في موضوع الدراسة، لأن الموضوع واحد تقريبا فلا يوجد مجتمع إنساني من دون ثقافة، ولا يمكن أن توجد ثقافة حية من دون مجتمع، غير أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية اختارت أن تنطلق من البناء الاجتماعي وما يضمه من علاقات ونظم اجتماعية أي مما هو كلي وصولا إلى العناصر البسيطة التي ليست سوى عناصر الثقافة المختلفة (لغة – عادات– سلوكات...الخ) بينما اختارت الأنثروبولوجيا الثقافية الانطلاق من هذه العناصر البسيطة وصولا إلى فهم بناء المجتمع في صورته الكلية.

الوحدة الثالثة: العلاقة بين الأنثربولوجيا وبقية العلوم الأخرى.

نجد على العموم ثلاثة أنماط من العلوم في علاقتها من الأنثروبولوجيا، **نمط أول** له دور في نشأة الأنثروبولوجيا وتطورها، فلم تكن الأنثروبولوجيا وصلت إلى ما وصلت إليه من فهم للإنسان لولا اعتمادها على تلك العلوم وما حققته من نضج وتقدم، **ونمط ثان** يتمثل في استخدام الأنثروبولوجيا تقنيات أو نتائج بعض العلوم الأخرى في حل مشكلات معينة، **ونمط ثالث** يمكن وصفه بنوع من التداخل والاعتماد المتبادل بين بعض العلوم (خاصة العلوم الاجتماعية) وبين الأنثروبولوجيا فيما يتعلق بالموضوعات والتقنيات والمناهج والنظريات.

1/علاقة الأنثروبولوجيا بالفلسفة:

– إذا كانت الفلسفة أم العلوم كما كانت تسمى بالنظر إلى شمولية دراستها مجموعة من العلوم الرياضية والإنسانية والفيزيائية، فإن صلة الأنثروبولوجيا بها وثيقة جدا ولاسيما في ما يتعلق بنظرة الإنسان إلى **الكون والحياة** في زمان أو مكان محدد، فدراسة أصل الإنسان ونشأته وحياته وسعيه إلى البقاء والخلود، وما ينجم عن ذلك من تطور وتغير مستمرين كلها تقع في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية.

– إذا كانت الفلسفة كما يرى أرسطو هي علم المبادىء والأسباب الأولى غايتها البحث عن الحقيقة برمتها، فإنها بهذا **تشترك مع الأنثروبولوجيا في عملية البحث عن الحقيقة**، وإن كانت وسيلة الوصول إلى الحقيقة في الفلسفة **تختلف** عنها في الأنثروبولوجيا، ذلك أن الأنثروبولوجيا تعتمد على البحث الميداني من خلال **معايشة** مجتمعات الدراسة، أو الاعتماد على معلومات توفرها مصادر أخرى؛ عكس الفلسفة التي تعتمد على **العقل**.

– إذا كانت الأنثروبولوجيا هي دراسة للإنسان، فقد شرح الفلاسفة ما يتناوله علم الأنثروبولوجيا بالدراسة، سواء كان على هيئة دراسة ميتافيزيقية للإنسان، أو لإنجازاته الأخلاقية، والجمالية، والعقلانية، وسماته البيئية، والجسدية، والنفسية. فقد اشتملت الفلسفة اليونانية على العديد من المواضيع التي يمكن وضعها **ضمن نطاق اهتمامات الأنثروبولوجيا**، خصوصًا التساؤلات المتعلقة **بأصل الإنسان** لدى العديد من الفلاسفة، فعلى سبيل المثال يرى طاليس أن الماء أصل كل شيء؛ مما يعني أن الإنسان خُلق من الماء؛ فمن خلال الإطلاع على الكثير من المواضيع والتساؤلات الفلسفية، يمكننا استنتاج أن المشكلات الأنثروبولوجية هي أيضًا مشكلات فلسفية بامتياز، وباعتبار الفلسفة أم العلوم فإن الأنثروبولوجيا تعتبر من العلوم التي استقلت عن الفلسفة بمنهجها وموضوعها الخاص وبطرق وأساليب بحثها. أي أن الموضوعات التي تهتم بها الأنثروبولوجيا قد اهتمت بها الفلسفة قبل ذلك بأسلوب مختلف.

– وترتبط كل من الفلسفة والأنثروبولوجيا **ارتباطًا وثيقًا** ببعضهما البعض؛ ففي حين تقدم الأولى **الأساس والمنهج العقلاني** لدراسة البشر، ثقافتهم وبيئتهم؛ فإن الثانية هي دراسة البشر ضمن **مخطط الزمان والمكان**. لأنه نادرًا ما وُجِد حقل علمي –باستثناء الفلسفة– بَحَثَ عن ماهية الإنسان في جوانبه المتعددة. هذا يعني أن **الأنثروبولوجيا لها تاريخها في الفلسفة**، فإذا كانت الأنثروبولوجيا هي دراسة الإنسان بحاضره وماضيه وثقافته ولغته وعاداته ودينه وبيئته أيضًا، فإن هذه القضايا قد نُوقشت في السابق، وتمّ استكشافها في مذاهب الحكمة الفلسفية.

– ويرى بعض الباحثين أن علماء ورواد الأنثروبولوجيا (خاصة الأوائل منهم) اشتقوا كل نظرياتهم ومفاهيمهم من الفلسفة لأن كل جانب من جوانب الطبيعة البشرية قد ناقشه الفلاسفة بالتفصيل.

2 - علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس:

– يختلف علم النفس عن الأنثربولوجيا في **وحدة التحليل**، حيث يقتصر علم النفس في دراسته على **الفرد**، بينما تركز الأنثروبولوجيا اهتمامها على **الجماعة أو المجموعة**، وعلى كل فرد بصفته عضوًا في تلك الجماعة؛ إلا أن ذلك لا ينفي وجود صلة وثيقة بين العلمين، حيث وصلت الصلة بين علم النفس والأنثروبولوجيا حد بروز علم يضمهما معا هو **الأنثروبولوجيا السيكولوجية** "**الأنثروبولوجيا النفسية**"، والتي تمخضت عن استخدام الباحثين الأنثروبولوجيين للاختبارات السيكولوجية في فهم البناء الأساسي للشخصية لدى أفراد المجتمعات البدائية، ويتضمن هذا الفرع دراسة **علاقة الفرد بالثقافة والمجتمع** (وبالأخص العلاقة بين **الثقافة والشخصية**)، فهو يدرس **سلوك الإنسان في الجماعة** بشكل عام. أما علم النفس فيركز على الفرد بشكل خاص، هذا ويوجه الاهتمام في الأنثروبولوجيا النفسية بدراسة الشخصية والتغير الثقافي والدراسة المقارنة للتغير المرتبط بالنمو على امتداد دورة حياة الفرد ودراسة مفهوم الهوية.. . إلخ.

– إذا كانت الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان من حيث تطوره وسلوكياته وأنماط حياته، فإن علم النفس يشارك الأنثروبولوجيا في **دراستها للسلوك الإنساني**، لكن ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي والحضاري الذي ينتمي إليه ويعيش فيه، إلى جانب أنه يدرس تأثير البيئة على سلوك الأفراد. ولكن الاختلاف بينهما هو أن علم النفس يركز على سلوك الإنسان الفرد أما الأنثروبولوجيا فتركز على السلوك الإنساني بشكل عام، كما تدرس السلوك الجماعي النابع من تراث الجماعة.

– وقد زاد الاهتمام بالتداخل بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس خاصة من خلال أعمال العالمتان الأنثروبولوجيتان الأمريكيتان **مرغاريت ميد Margaret Mead** و**روث بندكت Benedict ruth fulton** وغيرهما.

– ومن المحاولات المبكرة التي تبرز العلاقة بين الأنثروبولوجيا (الإثنولوجيا آنذاك) وعلم النفس، دراسات الإثنولوجي ريفرز Rivers الذي برز بدراساته العديدة للثقافات غير الغربية، حيث كان يهدف إلى إبراز المشكلات السيكولوجية الكامنة في المعلومات الإثنوغرافية التي جمعها عن تلك الشعوب، فقد فسّر المعتقدات والأعراف والعادات والممارسات الاجتماعية، من خلال التركيز على اكتشاف العمليات العقلية الكامنة وراء هذه الممارسات، وذلك بهدف فهم نفسية البشر على المدى البعيد. وقد أكدّ ريفرز أن الهدف الأساسي من الأبحاث التي تدرس الأعراف والمعتقدات والثقافة الشعبية يتمثل في اكتشاف الأسباب النفسية (السيكولوجية) التي تقف وراء أفكار وأفعال الإنسان بصفة عامة، وهو ما يساعدنا على فهم أفضل للإنسان والثقافة.

– كما أصبحت هناك علاقة قوية بين علم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية، بعد زيادة اهتمام علماء النفس بدراسة الثقافة واهتمام علماء الأنثروبولوجيا بدراسة الشخصية، وتم إجراء البحوث المختلفة التي تبين وتوضح أثر الثقافة في الشخصية، بمعنى الطرق التي تشكِّل بها الثقافة بما تحويه من عادات وتقاليد وقيم ومُثُل وأساليب التنشئة الاجتماعية، تشكل بها شخصيات أفرادها وتطبعهم بطابع معين يسودهم، فتظهر القواسم المشتركة التي تميز شخصيات أفرادها والتي تميزهم

عن غير من الشعوب والمجتمعات. وتجعل منهم متشابهين في الكثير من مكونات شخصياتهم، وتجعل الجماعة مطبوعة بشخصية جماعية ذات طابع خاص تميزهم عن شخصية الجماعات الأخرى، مع وجود اختلافات فردية في تفاصيل كل شخصية داخل الجماعة. ومن ناحية أخرى ظهرت العديد من البحوث التي تبحث **أثر الشخصية في الثقافة**، من خلال التركيز على الدور الذي يؤديه بعض الأفراد المميزين والملهمين في المجتمع مثل القادة السياسيين أو الشخصيات الكاريزمية مثلا في طبع وتوجيه الثقافة السائدة في مجتمعاتهم وجهة معينة. كما أن التعرف على نمط وسمات الشخصية يفيد كثيرًا في فهم الثقافة، فالثقافة في عمومها هي عبارة عن تعميم وتكرار للسلوك الفردي للأفراد الذي يتم التعبير عنه من خلال الأشخاص، فهي توجد من خلال الأشخاص وسلوكهم، فلا يمكن فهم الثقافة فهمًا صحيحًا دون الاستعانة بفهم شخصية وسلوك الأفراد المشكلين لها، وبالتالي فنحن بحاجة ماسة إلى علم النفس في ذلك. والمجتمع في النهاية هو تجمع لمجموعة من الأفراد والثقافة تعبر عن الطابع الجمعي الذي يصبغ شخصياتهم، وبالتالي فلا يمكن فهم هذا الطابع بمعزل عن شخصية الأفراد المشكلين لهذا المجتمع.

– كما أن التعاون بين بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس قد أثمر في ظهور فرع علمي، جديد أطلق عليه **الثقافة والشخصية** "***Culture and Personality***"، حيث يرى أنصار هذا الاتجاه أنه لكي يفهم الباحث الثقافة عليه أخذ خصائص تنظيم الشخصية وتكوينها بعين الاعتبار، وقد استفادوا كثيرا في ذلك من **نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم السلوكي**، حيث ركزوا على تحليل الأنماط الثقافية الاجتماعية في ضوء الوقائع الفردية.

– فالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس وثيقة وقوية من عدة جوانب حسب ريفرز، والذي يرى الجوانب التي يرتبطان فيها من خلال: أن كلا من المؤرخ والأنثروبولوجي والفلكلوري يحتاجون إلى عالم النفس لمعرفة الدوافع والعمليات التي وجهت عمليات التطور البشري؛ أن التفاعلات الاجتماعية وما يترتب عنها من أعراف ومعتقدات تعتبر مادة بحثية هامة لعالم النفس لدراسة السلوك الاجتماعي للفرد أي سلوك الفرد في سياق الثقافة ونظمها وفي سياق المجتمع؛ إن العلاقة تبادلية بين علم النفس والأنثروبولوجيا فكلاهما يمكن أن يساعد الآخر في دراساته، فكما يمكن لعالم النفس أن يستقي مادته التفسيرية من الدراسات الأنثروبولوجية، فكذلك يستعين الأنثروبولوجي بالدراسات والمفاهيم النفسية في الكثير من الأحيان.

3/ علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الإجتماع:

– يعتبر علم الاجتماع من بين العلوم التي لها ارتباط كبير مع الأنثروبولوجيا، وذلك على مستوى النشأة والمنهج والمواضيع على حد سواء، فالأنثروبولوجيا (نخص بالذكر الإثنولوجيا والإثنوجرافيا في فرنسا والاتحاد السوفياتي والأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا) كانت تدرّس تحت مظلة علم الاجتماع كما سبق وأن أسلفنا في المحاضرات السابقة، فقد كانت تدرّس كتخصص تابع لعلم الاجتماع في الكثير من البلدان، مما يؤكد الصلة الوثيقة بين العلمين، كما أن لهما تداخلًا كبيرًا في الكثير من المناهج والمواضيع التي يشتركان في دراستها وفق زوايا ونظريات تتقارب وتتباعد حسب السياق، كما يشتركان في وحدة التحليل فكلاهما يهتم بدراسة **الجماعة الإنسانية**.

– وبالرجوع إلى تاريخ الأنثروبولوجيا نجد أنها استقت الكثير خاصة في بداياتها من علم الاجتماع عندما ظهر في القرن التاسع عشر ميلادي أو مما شكلت فلسفته من خلال أفكار مونتيسكيو، دوتكفيل، أوغست كونت، إيميل دوركايم ومارسيل موس، خاصة الثنائي الأخير (الفرنسيين إيميل دوركايم وابن أخته مارسيل موس) اللذان يعود لهما الأثر البالغ في الأنثروبولوجيا البريطانية وتركيزها على دراسة **البناء الاجتماعي والنظم والوظائف والعلاقات الاجتماعية**، مما دعا راد كليف براون (أحد أكثر المتأثرين بفكر دوركايم) إلى القول بأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي **فرع من فروع علم الاجتماع**

المقارن الذي يدرس الظواهر الاجتماعية عبر المجتمعات، وقد ناهض البعض هذه الفكرة على أساس أن الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان، ثقافته، ونظمه الاجتماعية في المجتمعات البسيطة والبدائية نسبيا أما علم الاجتماع فيهتم بدراسة المجتمعات الإنسانية الحالية والكبرى. ولكن مع تطور اهتمامات الأنثروبولوجيا انتفت هذه الفكرة.

ولفهم طبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، يجب أن نميز بين التوجه التقليدي والكلاسيكي لكل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وبين توجههما المعاصر (خاصة بعد الحرب العالمية الثانية)، حيث أنه في التوجه التقليدي كان هناك **تباعد واضح** بين العلمين من حيث الموضوع والمنهج ومجال الدراسة وكان الفارق بينهما واسعا، لكن مع التوجه الحديث صار **التقارب والاقتراب والالتقاء** شديد بينهما في الكثير من النقاط والزوايا إلى حد التشابه. لدرجة صار الباحثين في كلا العلمين يعتمدون بشكل متبادل على بعضهم البعض.

المجال	في التوجه الكلاسيكي (التباعد بين العلمين)		في التوجه الحديث (الاقتراب بين العلمين)	
	علم الاجتماع	الأنثروبولوجيا	علم الاجتماع	الأنثروبولوجيا
في موضوع ومجال الدراسة	–دراسة المجتمعات المعاصرة ذات التنظيم المعقد	– دراسة المجتمعات البدائية ذات التنظيم البسيط	أصبح يهتم بالمجتمعات المحلية الصغيرة	أصبحت تهتم بالمجتمعات الصناعية المعاصرة
مناهج وطرق البحث	– المناهج الكمية (البيانات الإحصائية والاعتماد على الاستمارة والمقابلة والوثائق والسجلات)	– المناهج الكيفية (المنهج الإثنوغرافي والدراسات الحقلية والاعتماد على الملاحظة بالمشاركة)	أصبح كل منهما يعتمد على الأساليب الكمية والكيفية على حد سواء، ويعتمدان بشكل متبادل على الأساليب والأدوات التي تميز بها كل علم سابقا.	
شمولية البحث	– دراسة كل مشكلة أو ظاهرة على حدة؛ والاعتماد على العينات وليس المجتمع ككل.	دراسة شاملة أي دراسة المجتمع والحياة الاجتماعية ككل.	أصبح الاتجاه التكاملي وشمولية البحث يميز علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على حد سواء.	

باختصار فقد كان موضوع الدراسة في كلا العلمين مختلفًا، فقد ركز الأنثروبولوجيون اهتمامهم في الماضي على دراسة المجتمعات البسيطة والمنعزلة، في حين كان السوسيولوجيون يركزون دراساتهم على المجتمعات المتحضرة في أوروبا والغرب بصفة عامة، وبطبيعة الحال فقد أدى الاختلاف في الموضوع إلى اختلاف في مناهج البحث، فقد كان الباحث الأنثروبولوجي الذي يدرس جماعة صغيرة الحجم لا يحتاج إلى اختيار عينات للدراسة بل يدرس الجماعة ككل، في الوقت الذي كان الباحث في علم الاجتماع الذي يدرس مجتمعات كبيرة الحجم يولي العينة وكيفية اختيارها أهمية بالغة. لكن بعد أن بدأت الأنثروبولوجيا تخرج عن نطاق دراسة المجتمعات البسيطة إلى دراسة المجتمعات المتحضرة، بدأ الاختلاف في المناهج يتقلص بينها وبين علم الاجتماع، وأصبح مفهوم الثقافة (الذي كان حكرًا على الأنثروبولوجيا) يستخدم على نطاق واسع في علم الاجتماع، حتى صار علم الاجتماع الثقافي فرعًا من فروع علم الاجتماع، وقد أصبح أيضا المتخصصون في العلمين يحرصون بدرجة متزايدة عند وضع نظرياتهم على الاستفادة من المعلومات التي يقدمها كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

4/ علاقة الأنثروبولوجيا بالتاريخ:

– يجمع علماء الإنسان على ضرورة الاستعانة بالتاريخ والدراسات التاريخية في دراسة المجتمعات البدائية والقديمة والسحيقة. وقد كان للتطور الذي عرفه علم الآثار دور أساسي في نشأة وتطور الأنثروبولوجيا (خاصة الفيزيقية)، علم الآثار الذي كان إلى عهد قريب جزءًا من علم التاريخ قبل أن ينفصل عنه.

– وقد كان هناك خلاف بين الأنثروبولوجيين الأوائل في مسألة الاعتماد على التاريخ، حيث كان يرى أنصار المدرسة الوظيفية التي كانت تركز على الحاضر في دراسة الثقافة والبناء الاجتماعي، أن الأنثروبولوجيا لن تكون لها معنى إذا اعتمدت على دراسة التاريخ، لذلك على الأنثروبولوجيين تركيز جهودهم ودراساتهم على المجتمعات التي يستطيعون مشاهدتها ودراستها بأنفسهم وبشكل مباشر. بينما على النقيض من ذلك ذهب الكثير من العلماء الآخرين خاصة في التيار التطوري والانتشاري وغيرهم، إلى أن الأنثروبولوجيا تقوم على الدراسات التاريخية التي بدونها لا تصبح شيئًا على الإطلاق، حيث يذهب هؤلاء إلى ضرورة البحث عن تاريخ وأصل الثقافات والنظم الاجتماعية وكيف تطورت وانتشرت عبر الزمن.

– وحتى الخمسينات من القرن العشرين كانت لا تزال عملية الفصل بين التاريخ والأنثروبولوجيا، في أن التاريخ يهتم **بالماضي الأوروبي**، والأنثروبولوجيا تهتم بالمجتمعات **غير الغربية المعروفة بالمجتمعات اللاتاريخية**. وانطلاقا من الستينات للقرن العشرين، حدث ما يسمى بتجديد الأنثروبولوجيا، أي الانتقال إلى دراسة المجتمعات الأوروبية فبرزت بذلك إشكاليات مشتركة بين التاريخ والأنثروبولوجيا، حيث أصبح التاريخ يدرس مواضيع تقليدية للأنثروبولوجيا، كالأسطورة، القرابة، الأعياد، الموت...إلخ.وظهر فرع يجمع بين العلمين يسمى بـ**الأنثروبولوجيا التاريخية**. وأصبحت الأنثروبولوجيا لا تهتم فقط بالإنسان البدائي، فقد أدرجت الإنسان المعاصر منذ 1869 م ضمن موضوعاتها.

– إن ما يميز الأنثروبولوجيا، أنها **علم تاريخي**، لأن دراسة الإنسان وثقافته تكون من خلال عاملي الزمان والمكان، فالتاريخ يصف كل ما يستطيع الأنثروبولوجي أن يكشفه عن ماضي الشعوب التي يدرسها، **فلا يوجد مجتمع دون تاريخ**، كما لا يمكن فهم الحاضر بمعزل عن الماضي. وفي هذا السياق الإزدواجي للتاريخ والأنثروبولوجيا، صرح ***ميتلند F.W.Maitland***، بأنه **يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الإطلاق.** كما يؤكد **كلود ليفي ستروس** على **أن معرفة الماضي تعتبر ضرورة حتمية لمعرفة الظواهر الاجتماعية**، وهذا ما يفعله الأنثروبولوجي في تتبع تاريخ المجتمعات للتعرف على ديمومة واستمرارية هذا البناء، وعليه يكتسي البعد التاريخي في الدراسات الإنسانية والاجتماعية أهمية وضرورة حتمية للأنثروبولوجي.

– فكل من التاريخ والأنثروبولوجيا يلتقيان في أكثر من موقع سواء من حيث المنهج أو من حيث الهدف، حيث على غرار المؤرخ يقوم الأنثروبولوجي بتجميع الحقائق عن موضوع دراسته؛ وفي اهتمام الأنثروبولوجي بوصف الأحداث والتعرف على العوامل التاريخية المساهمة في نشأة الحضارة والثقافة الإنسانية لمجتمع معين، ولذلك فإن مناهج البحث في الأنثروبولوجيا والتاريخ **متكاملة**؛ ومع ذلك فالأنثروبولوجي ليس مؤرخًا، فالمؤرخون يدرسون **الأحداث والوقائع التي مضت وانقصت**، لكن الأنثروبولوجي يدرس الماضي ويصنف ما يوجد في الوقت الراهن، عكس المؤرخ الذي لا دخل له بالحاضر وإنما يدرس الأحداث السابقة. فالتاريخ يهتم بدراسة ماضي الإنسان، بينما تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة ماضي وحاضر ومستقبل الإنسان.

الوحدة الرابعة: كرونولوجيا نشأة وتطور علم الإنسان.

تعتبر الأنثروبولوجيا علم حديث نسبيا مقارنة مع باقي العلوم، حيث لم يأخذ استقلاله الأكاديمي إلا في القرن

التاسع عشر بعد أن استقل عن الفلسفة الاجتماعية، ولكن هذا لا ينفي وجود جذور لهذا العلم، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في ثنايا هذه المحاضرة.

أولا- الأنثروبولوجيا العفوية أو التطبيقات الأنثروبولوجية قبل ظهور الأنثروبولوجيا كعلم مستقل:

رغم أن الأنثروبولوجيا علم حديث إلا أن الفكر الأنثروبولوجي قديم قدم الإنسان ذاته، فالمتأمل في كتابات العديد من الفلاسفة والرحالة والمؤرخين في العصور القديمة والحديثة التي تسبق ظهور الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته، يجد بعض ملامح الأنثروبولوجيا في هذه الكتابات، التي اهتمت ببعض المواضيع التي يمكن اعتبارها مركز اهتمام هذا العلم، وتميزت ببعض الخصائص التي تتشابه إلى حد كبير مع الأنثروبولوجيا، على الرغم من تميزها بالطابع العفوي والوصفي إلا أنها مثلت الجذور والامتدادات التاريخية لهذا العلم والإرهاصات الأولى التي مهدت لتشكله فيما بعد، وفيما يلي سنحاول تقديم لمحة عن الفكر الأنثروبولوجي عبر العصور والحضارات المتعاقبة.

1/ الفكر الأنثربولوجي في العصور القديمة: (بواكير الفكر الأنثروبولوجي)

1-1) الحضارة المصرية القديمة:

يرى الباحثون في تاريخ الإثنوغرافيا أن أقدم رحلة على الإطلاق هي تلك التي قام بها المصريون عام 1493 قبل الميلاد، نحو الجنوب عبر نهر النيل بأسطول مكون من خمسة مراكب بهدف تسويق البضائع والسلع المصرية، فقد كانت الرحلة بمثابة اتصال المصريين بأقزام إفريقيا وإقامة علاقات معهم، حيث قام المصريون بوصف هذا الاتصال عن طريق الرسوم الموجودة على جدران معبد الدير البحري. فقد أوضحت الرسوم بعض التفاصيل الجسمية لتلك الشعوب الذين تميزوا بالسمنة المفرطة. ويمكن اعتبار هذه الرسوم بمثابة الكتابات الوصفية التي تصور الصفات الجسمية، وتظهر الاختلاف والتمايز بين الخصائص الفيسيولوجية للبشر، والتي تعد من أهم المواضيع في علم الإنسان خاصة في الأنثروبولوجيا الفيزيقية.

2-1) الحضارة الإغريقية (اليونانية):

تبرز الجذور التاريخية للأنثروبولوجيا خلال هذه المرحلة بوجود المادة الوصفية لشعوب المجتمعات القديمة في كتابات عدد من الكتاب الإغريق، أمثال الشاعر **هوميروس** Homer صاحب ملحمتي **الإلياذة والأوديسة**. كما يعتبر المؤرخ اليوناني **هيرودوتس** (أو **هيرودوت** كما يسميه البعض) الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد "**أبو التاريخ**" وهناك من يسميه أيضا "**أبو الأنثروبولوجيا**"؛ حيث يراه الكثير من الباحثين أنه أول باحث أنثروبولوجي في التاريخ، فقد جمع مادة وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير اليونانية، حيث تناول تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية، واستطاع طرح فكرة وجود تنوع بين الشعوب من ناحية العادات واللغة والسلالة والدين، وقدّم معلومات مفصلة عن حوالي **خمسين شعبًا** احتك بهم من خلال رحلاته وقراءاته، كما وصف بشكل دقيق الحرب التي دارت بين الفرس والإغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد وصفًا دقيقًا، هذا وقد جاء في كتابات هيرودوتس الكثير من الشواهد والمعلومات الوصفية عن كثير من الشعوب الأخرى، كما وصف لنا الكثير من المظاهر المتعددة للحياة المعيشية عند بعض الشعوب (البيئة، الملبس، المأكل، الطب، عادات الزواج والتقاليد المصاحبة لها)، كما كتب عن اقتباس الشعوب من بعضها البعض، فأشار إلى أن الإغريق قد أخذوا عن الليبيين الثياب والغناء والعربات.

كما نجد بعض ملامح الفكر الأنثروبولوجي لدى فلاسفة اليونان أمثال **أفلاطون وأرسطو**، من خلال التساؤلات التأملية عن أصل الإنسان وإسهاماتهم في بلورة الفكر التطوري للكائنات الحية، وتوجيه التفكير نحو دراسة النظم الاجتماعية، وغيرها من المواضيع التي صارت فيما بعد حجز الزاوية في اهتمامات الأنثروبولوجيا المعاصرة، وعلى

العموم يبقى للفكر الفلسفي اليوناني الفضل في توجيه العقل الإنساني نحو الفكر والتأمل في الوصول إلى الحقيقة.

3-1) الحضارة الرومانية:

تكاد تخلو الفترة الرومانية من إسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، ولعل من الإسهامات القليلة التي تم تداولها كبوادر لعلم الإنسان أشعار " **لوكروتيوس**" في القرن الأول قبل الميلاد، والتي ضمت بعض الأفكار الاجتماعية المهمة، حيث تناول الشاعر الروماني موضوعات عرضها في ستة أبواب رئيسية، ضم الباب السادس منها فكرة التطور والتقدم والعقد الاجتماعي ونشأة اللغة ونظامي الملكية والحكومة، إلى جانب مناقشة بعض القضايا الأخرى مثل العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى. .الخ، واستطاع لوكروتيوس وفق نظرة تطورية أن يتصور تطور البشرية عبر مسارات متتالية من العصر الحجري إلى العصر البرونزي إلى الحديدي، مما جعل البعض يرى أن هذه الأفكار التطورية تمثل أصول لأفكار علماء الآثار ولما جاء به لويس مورغان أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر.

4-1) الصينيين القدماء:

وكما هو الحال عند الرومان، لا نجد لدى الصينيين إسهامات واضحة يمكن اعتبارها بوادر للأنثروبولوجيا، ماعدا اهتمام فلاسفتهم بالأخلاق والشؤون العامة للمجتمع، رغم الاحتكاك في مجال التجارة وتبادل السلع مع شعوب أخرى، إلا أن هذا الاحتكاك لم ينتج عنه تأثيرات ثقافية عميقة، فقد كان الصينيون يشعرون بنوع من "الاكتفاء الثقافي"، مما جعلهم لا يعبؤون بالثقافات خارج حدودهم الجغرافية، ولم يروا وجود داعي للاحتكاك بباقي الثقافات أو بحثهم عن الاختلافات الموجودة فيها، (كانوا لا يرون وجود أية حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، وهناك من يذهب إلى أنهم قاموا ببناء سور الصين العظيم لكي يمنعوا الاحتكاك والاختلاط بباقي الشعوب والثقافات). ورغم ذلك لم يخلو تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية والتي كانت تتسم بالازدراء والاحتقار.

لقد اتسمت نظرة الصينيين بالتعالي والعنصرية شأنهم شأن بقية مراكز الحضارة عبر التاريخ كاليونان والرومان وغيرهم. وخلاصة القول أن كتابات الفلاسفة والمؤرخين خلال هذه المرحلة (الحضارات القديمة ما قبل الميلاد) شكلت مادة وصفية يمكن الاعتماد عليها كمادة إثنوغرافية (ونخص بالذكر كتابات هيرودوتس) يستفيد منها الأنثروبولوجيون في دراسة الثقافات والحضارات القديمة، أي أنها شكلت جذورًا تاريخية للأنثروبولوجيا، لكنها ليست ذات أهمية كبيرة في التأسيس للأنثروبولوجيا كعلم مستقل وقائم بذاته.

2- الفكر الأنثروبولوجي في العصور الوسطى:

هذه العصور تمتد من القرن الخامس إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوروبية، ارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الحضارات الأوربية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوربية. في الوقت نفسه كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة.

1-2) العصور الوسطى في أوروبا:

– وتسمى أيضا عصور الظلام، تمتد منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية سنة 476 م (القرن الخامس) إلى قبيل عصر النهضة في القرن الرابع عشر، تميزت هذه المرحلة بتدهور التفكير العقلاني، وأدينت أية أفكار تخالف التعاليم المسيحية أو ما تقدمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، وانشغل فيها الأوروبيون بنشر النصرانية خارج حدود روما، من خلال الحروب الصليبية التي كانت تهدف إلى تخليص الأراضي المقدسة من يد المسلمين، وسيطرت خلالها الكنيسة

والمؤسسات الدينية المرتبطة بها على اتجاه التفكير الاجتماعي، كما كانت هناك أيضا مراكز أخرى وجهت منطلقات المعرفة، كبلاط الملوك مثلاً، الذي كان يضم في العادة فئات من المثقفين كرجال الإدارة والسياسة والشعراء.

– على المستوى الجغرافي كانت إقطاعيات أوروبا تتوسط عددًا من الحضارات الأخرى، وبدلًا من معرفة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها وخصائصها، نظروا إليها نظرة مصبوغة بالصبغة الدينية الكنائسية والاستعلائية، من منطلق ضرورة تخليصها من الشرك والوثنية عن طريق الغزو والحروب.

– لكن رغم ذلك تميزت هذه المرحلة ببعض الكتابات عن تلك الشعوب، تميّزت في مجملها **بالوصف والتخيل** ولم تكن مبنية على **المشاهدة المباشرة**. وبرزت محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلاّ أنها اتّسمت– غالبًا–بالوصف التخيلي، وكانت بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. مثال ذلك، ما قام به **الأسقف إسيدور Isidore** الذي أعد في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتّسم بالسطحية والتحيز. ومما ذكره، أن قرب الشعوب من أوروبا أو بعدها عنها، يحدد درجة تقدمها، فكلّما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكّدًا لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف. وقد ظلّت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي **باتولو ماكوس**، والتي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنها لم تختلف كثيراً عن سابقتها في الاعتماد على الخيال.

– كما نجد الكتابات التي شكّلت مادة إثنوغرافية عن الشعوب غير الأوروبية، على سبيل المثال مدونات الإيطالي **جون دي بلانكو كاربيني Carpini** في القرن الثالث عشر، الذي توجه إلى بلاد المغول (التتار) بتكليف من البابا لدراسة تقاليدهم وعاداتهم بهدف إنجاح عمليات التنصير أو التبشير، حيث قام بتقديم وصف دقيق لشعوب بلاد آسيا الوسطى والشرقية. ومن بين كتابات الرحالة المشهورة خلال هذه الفترة نجد رحلات **نيكولاي بولو polo** وابنه **مارك بولو** وأخيه **ماثيو بولو** (أخ نيكولاي)، تميزت بالطابع التجاري والاستكشافي. ولعبت دور سياسي كبير كهمزة وصل بين الشرق والغرب، لكنها اتسمت بعدم الاتساق والخلو من الترابط والبرهان.

فمن خلال ما سبق لا نجد كتابات كثيرة عن الشعوب الأخرى غير الأوروبية، وما وجد منها كان لا يخرج عن نطاق التفكير الكنائسي، حيث كان يُنظر إلى الفروق بين البشر في التكوين الجسدي أو الوضع الحضاري من خلال تقديم تفسيرات قائمة على التحيز العنصري والديني، وفق نظرية الارتداد الحضاري أو الانتكاس الحضاري*، حيث كانوا يرون أن بعض السلالات خاصة غير الأوروبية قد تدهورت من الحالة المثلى التي خلق الله الإنسان عليها إلى مستوى حضاري أدنى بسبب ما قاموا به من أفعال شرية وما يمارسونه من معتقدات شاذة وغريبة. أما الشعوب والحضارة المسيحية فقد كانت تمثل حسبهم أرقى أنواع الحياة الإنسانية وأكثرها تقدمًا ورقيًا.

2-2) عصر الازدهار الحضاري عند العرب والمسلمين:

– يمتد من منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً. حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار. وقدّ تميّز المسلمون والعرب خلال هذه المرحلة في العديد من المجالات أبرزها: الآداب والعلوم الطبيعية والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت لهم تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية.

---

* وقد جاءت النظرية التطورية التي سنتعرف عليها في المحاضرات اللاحقة كردة فعل عن نظرية الانتكاس الحضاري وفق رؤية معاكسة تمامًا لرؤية الانتكاس بحيث كانت ترى أن الحضارات تتطور دائما من الحالة الأدنى إلى الحالة الأرقى.

– وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، كما ازدادت تنقلات الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالة، واهتم الكثير منهم بتدوين ما يرونه يشاهدونه ويسمعونه حول الأقاليم والمناطق الشعوب التي احتكوا بها، كما برزت الجغرافيا العربية التي بلغت ذروتها في القرن التاسع ميلادي، ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم "**البلدان**" **لياقوت الحموي**. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل "**مسالك الأمصار**" **لإبن فضل الله العمري**، و" **نهاية الأرب في فنون العرب**" **للنويري**. وإلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران، فقد تميزت مادتها بالاعتماد على **المشاهدة والخبرة الشخصية**، وهذا ما جعلها مادة خصبة من الناحية الإثنوغرافية في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية.

– وقد برزت العديد من كتابات الرحالة خلال هذه الفترة، منهم من كتب عن الكثير من المناطق والأقاليم كما أسلفنا ذكره، وهناك من تخصص في وصف إقليم واحد مثل **البيروني** الذي وضع كتاباً عن الهند بعنوان "**تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**"، وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية. كما كانت لرحلات الرحالة المشهور **ابن بطوطة** وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، في كتابه "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**" المعروف باسم **رحلة ابن بطوطة**، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم؛ ويبرز كذلك ضمن الرحالة العرب **علي بن حسين المسعودي** (الذي أطلق عليه لقب شيخ الرحالة العرب) في مؤلفه الشهير"**مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، كتب فيه عن وصف الخليقة وعرضه للأديان والمذاهب والعادات وتأثير البيئة على الإنسان من الناحية الجسمانية والسلوكية والعقلية. وكذلك الرحالة **ابن فضلان** الذي أرسله الخليفة العباسي لبلاد البغار، فكتب عن عادات البغار والروس الذين كانوا يتاجرون معهم؛ إضافة إلى الرحالة **ابن بطلان** الذي وصف الجوانب الاجتماعية والثقافية للجماعات التي عايشها أثناء رحلته من بغداد إلى الشام، مثل السكان النصارى البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم. دون أن ننسى الرحالة **ناصر خسرو** (وهو فارسي الأصل والنشأة والثقافة) في رحلته المعروفة باسم "**سفر نامة**"، قدّم من خلالها وصفًا دقيقًا ومعلومات غنية عن مدن الشام وحياة الناس بها وتقاليدهم قبل مجيء الصليبيين.

– في أواخر أيام الحضارة الإسلامية برز أحد أبرز المفكرين الذي يزال إسمه خالدًا إلى غاية اليوم، ألا وهو العلامة **عبد الرحمن بن خلدون** وكتابه الموسوعي "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" والمعروف باسم "**المقدمة**"، وتعتبر هذه المقدمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكلت موضوعات هذه المقدمة –فيما بعد– اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية. ومن أهم الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، والتي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. ومسألة قيام الدول وتطورها وأحوالها، وبلور نظرية "دورة العمران" بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي. كما أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمر بها. فلم يقدم ابن خلدون معلومات وصفية إثنوغرافية فقط عن مختلف الشعوب التي اختلط بها بحكم عيشه في الكثير من المناطق والدول، لكنه قدم تفسيرات نظرية وفق قواعد وأسس منهجية كان له الفضل في تأسيسها وتطويرها.

واستناداً إلى ما تقدم ضمن بواكير الفكر الأنثروبولوجي منذ القدم، يمكن القول أنّ والمفكرين العرب

(بالأخص هيرودوتس وابن خلدون) أسهموا بفاعلية في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيما التنوع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى، ومسألة النسبية الثقافية التي صارت فيما بعد أساسًا لمعالجة ودراسة الثقافات الإنسانية لدى الأنثروبولوجيين المعاصرين. ولكن على الرغم من أهمية هذه الأعمال باعتبارها مصادر هامة للمادة الإثنوغرافية التي درست أسلوب الحياة في في تلك الحقبة، إلا أن الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات، ولا بغيرها من الدراسات اليونانية والرومانية القديمة. فقد كانت هذه الدراسات محصورة في جمع المادة الإثنوجرافية الوصفية فقط عن شعوب المجتمعات القديمة (باستثناء عمل ابن خلدون الذي يحمل المادة الإثنوجرافية والنظرية معًا)، في حين أن المحاولات الجدية من أجل التنظير بطرق منهجية سليمة لم تبلغ ذروتها إلا خلال عصر النهضة في أوروبا.

3- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية (البدايات النظرية لعلم الإنسان):

– بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر. إنّ هذه التغيّرات مجتمعة أدت إلى ترسيخ عصر النهضة، وأسهمت بالتالي في التمهيد لبلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطور الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني.

– أهم رحلة استكشافية مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، رحلة **كريستوف كولومبوس** إلى القارة الأمريكية ما بين 1492–1506 حيث زخرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة، مع محاولته معرفة الأسباب الكامنة وراء ما شاهده أو سمع عنه من عادات وتقاليد أو طقوس وممارسات يومية.

– كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492 وما تلتها من رحلات استكشافية لكثير من الرحالة، أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، مما أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي. وذلك لأن هذه الاكتشافات الجغرافية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوع الجنس البشري، وأثارت كثيراً من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطور عند الكائنات البشرية. وأسهمت في نمو الفضول لدى الأوروبيين لاكتشاف هذه الشعوب الجديدة التي لم تكن معروفة عندهم، مما دفع إلى إثارة التساؤل: **هل هذه الشعوب تنتمي إلى نفس النوع الذي ينتمي إليه الإنسان الغربي؟ وهل تمثل المرحلة السابقة لتطور الإنسان والمجتمعات والحضارات الغربية؟ وهل تمثل حالة مماثلة لتلك التي كان يعيشها أسلافنا قبل ظهور الحضارة (قبل ظور الكتابة والقراءة)؟**

– لقد تميز عصر النهضة الأوربية باتفاق المفكرين على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية. وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتّجاه لدراسة الإنسان، عرف **بالمذهب الإنساني** (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتّجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية التطورية للإنسان.

– وقد تبلور هذا الاتّجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء

القرن السابع عشر، من أمثال: **فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت واسحاق نيوتن** وغيرهم، حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان عل أنه ظاهرة طبيعية، ويمكن دراسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطور الإنساني والتقدم الاجتماعي. وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

– أما بالنسبة للدراسات الاثنوغرافية والدراسات الإثنولوجية فثمةّ أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء؛ وقد تكون محاولة الرحالة الإسباني **جوزيه آكوستا** في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الاثنوجرافية والتنظير بشأنها، فقد افترض آكوستا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك؛ وقدم آكوستا أيضاً افتراضاً آخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معينة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة. وقد وضع أوروبا في أعلى الترتيب، وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك ..، وصنفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب.

– وظهر إلى جانب آكوستا الإسباني في الدراسة الأثنوجرافية عن الشعوب البدائية، الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي **ميشيل دي مونتاني** الذي أجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوروبا، وبعد أن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية: "**إنه لكي يفهم العالم فهماً جيدًا، لا بد من دراسة التنوع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنوع**". ومن هذه الرؤية، لاقى كتابه الشهير "المقالات" الصادر عام 1579، اهتماماً كبيراً لدى مؤرخي الفكر الأوروبي عامة، والفكر الفرنسي خاصة.

– كما برزت الكثير من كتابات الرحالة والمستكشفين التي زادت اهتمام وفضول وشغف الأوروبيين باكتشاف هذا الإنسان الغريب الذي أصبح شغلهم الشاغل، وقد ساعد في زيادة هذا الشغف اكتشاف الطباعة في ألمانيا سنة 1457، حيث تم نشر كتابات الرحالة وشيوع ما بها من معلومات بين أكبر عدد ممكن من المهتمين، كما شاعت الكتب المصورة عن الرحلات ولاقت رواجًا كبيرًا بين القراء والمهتمين، مما وفّر مادة إثنوغرافية ضخمة عن مختلف الثقافات والحضارات، رغم ما اتصفت به من أحكام قيمية وتحيّز ثقافي واستعلاء عنصري. نذكر منها مثلا ما كتبه رسام الخرائط الإيطالي **فيسبونشي أميرجو** في وصفه لسكان أمريكا الأصليين، حيث وصفهم على أنهم انعكاسات مشوهة أو مقلوبة عن الأوروبيين، وبأنهم ملحدون ومشوشون وعراة وليس لديهم سلطة أو قوانين وبأنهم أيضا أكلة لحوم البشر. فقد كانت أغلب الكتابات تحمل ملامح لتشويه حقيقة الناس الذين تكتب عنهم وتعبّر عن خلفيات الكتاب بدلا عن حقيقة الشعوب الموصوفة.

– اعتمدت الأصول الأولى للأنثروبولوجيا على المستويين النظري والمنهجي في دراسة ما خلفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير، حيث بدأت منذ القرن 15 تتراكم كميات كبيرة من المعلومات الوصفية تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود، خلّفت تجميعًا ضخمًا لمادة إثنوغرافية امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين، حيث دوّن المؤرخون خبراتهم الشخصية والقصص والأساطير التي صادفوها أو سمعوها خلال رحلاتهم، لذلك فقد تميزت هذه الكتابات بالذاتية والنظرة العنصرية والدونية للشعوب والثقافات الأخرى، فقد كان معظم الرحالة ينظرون إلى الشعوب الأخرى من خلال ميولهم الثقافية المتعصبة.

عموما فقد شكل كل من الاستكشافات الجغرافية وبروز الاتجاه العلمي والمذهب الإنساني نقلة نوعية، أسهمت في أبراز مجالات واهتمامات جديدة في دراسة الإنسان الأوروبي وغيره، كما ساهمت بصورة تدريجية في بلوة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا خلال عصر التنوير.

- الأنثروبولوجيا في القرن الثامن عشر (عصر التنوير):

– حمل هذا العصر معه الكثير من التغييرات على مختلف الأصعدة والتي ألقت بظلالها على مختلف شؤون الحياة وعلى العلوم كذلك، فعلى المستوى الفكري والعلمي برزت حركة التنوير (فلسفة التنوير)، فقد اعتُبِرَ القرن الثامن عشر ريعان العلم والفلسفة في أوروبا، وسقطت تبعا لذلك هيمنة الكنيسة والتفكير الديني، وأصبح الفرد الحر معيارًا لكل شيء، وظهرت النوادي والصالونات العامة لمناقشة الفن والفلسفة والقضايا الاجتماعية، كما ظهرت الصحف والمجلات والدوريات والروايات، كما برزت الثورة الصناعية التي تطورت من خلالها الآلات والآلية الصناعية والتكنولوجيا، وبذلك حلّت لغة العقل محل لغة الكنيسة والمعتقدات التقليدية، بينما على المستوى السياسي والاجتماعي فقد كان للثورة الفرنسية الأثر البارز في إعادة هيكلة نظام اجتماعي عقلاني تام، كان له تأثيره البالغ على أفكار المجتمع في أوروبا كلها.

– فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا، شكّلت كل من كتابات فلاسفة التنوير والفلاسفة الاجتماعيين وأدب الرحلات (كتب الرحالة) مصادر للفكر الأنثروبولوجي خلال هذه المرحلة، حيث تبلورت بعض النظريات لدى الفلاسفة الاجتماعيين تبحث في التاريخ الحضاري للإنسان، تركز على حياة الناس المعيشية ومستوياتهم الحضرية، خاصة في كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا. كما ظهرت محاولات لتحديد الفوارق البيولوجية والسلوكية بين الحيوانات والبشر، والفرق بين الطبيعة والثقافة وبين السلوك الفطري والسلوك المكتسب وبين الجسد الحسي والعقل المدرك، وبرزت تساؤلات شغلت بال المفكرين مثل: **هل الناس في الأصل متشابهين في كل زمان ومكان؟ أم مختلفين من داخلهم؟**. لكن رغم ما أثارته من قضايا هامة تحظى بمكانة هامة ضمن اهتمامات الأنثروبولوجيا، إلا أنها لا تعتبر لحد الآن أنثروبولوجيا وفق مفهومها الصحيح. لأنها تميزت بوصف الشعوب غير الأوروبية على نحو معياري يقوم على أساس التعصب العرقي، وكانت تخلو من المنهج العلمي والاستناد النظري.

– ففي فرنسا برزت كتابات كل من **جون جاك روسو** و**مونتيسكيو**، فقد احتلّت كتابات **جون جاك روسو** أهمية كبيرة لدى مؤرخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته من مادة إثنوجرافية عن الشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) ومقارنتها مع المجتمعات الغربية الأوروبية؛ حيث تميزت كتاباته بالتجرد والموضوعية واستطاع أن يخلص نفسه من التحيّز الثقافي، حيث انتقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسانه بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى. وفي هذا الإطار، يعد كتابه "**العقد الاجتماعي**" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي. وكان إلى جانب روسو الفيلسوف الفرنسي كذلك **مونتسكيو**، الذي وضع كتاب "**روح القوانين**" الذي نشر سنة 1748، وأوضح فيه فكرة الترابط بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة. كما اهتم مونتسكيو بدراسة النظم السياسية، وتأثير المناخ على نوعية الحضارة أو الثقافة. وقدّم مونتسكيو مقارنة بين الثقافات والنظم التشريعية المختلفة والنظم الاجتماعية. كما أنه قدّم في كتابه "**رسائل فارسية**" وصفًا للثقافة الفرنسية (التي كان يعيش في كنفها) من خارجها من خلال وصفه لها من وجهة نظر إنسان دخيل لا ينتمي إلى المجتمع الفرنسي.

– أما في ألمانيا، فقدّ تبلور الفكر في عصر التنوير، عن التفوّق العنصري والنزعة القومية الشوفينية (التعصبية)، وظهر ذلك واضحاً في كتابات كل من **جورج هيجل وجوهان فخته**، حيث جعلا الشعب الألماني (الجنس الآري أو

الجرماني) الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم. أما كتابات **جوهان هيردر** فجاءت لتعزز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها في مقومات الحضارة، حيث يذهب **هيردر** إلى أنه ثمة سلالات بشرية خلقت للرقي، وسلالات أخرى محكوم عليها بالتأخر والانحطاط ويجب أن تبقى كذلك لأنها ليست أهلًا للرقي والتقدم.

– تم استخدام المادة الإثنوجرافية الكبيرة التي تم جمعها خلال عصري النهضة والتنوير في صياغة نظريات وآراء حول طبيعة الاجتماع الإنساني، والمراحل التي مر بها تاريخ البشرية والكشف عن القوانين التي تحكم هذا المسار، والمقارنة بين المجتمعات البدائية ونظيرتها المتمدنة، لقد كانت هذه الحقبة تتميز بالموسوعية، عكس الاتجاه الحديث في الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى الذي يميل نحو التخصص الدقيق.

لقد حملت كتابات فلاسفة التنوير ملامح نظرية للأنثروبولوجيا إضافة إلى المادة الإثنوجرافية والمقارنات بين مختلف الشعوب تميزت بالتجريد والموضوعية، حول العادات والقوانين والتقاليد والبيئة، وكذلك الاهتمام بدراسة النظم السياسية. وهنا يمكن القول: إن الأنثروبولوجيا المتحررة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الانسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجد –ولا شك– في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذوراً أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكري. وتأسيساً على ما تقدم، يمكن القول أنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرخين، شكل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.

ثانيا. نشأة الأنثروبولوجيا كعلم مستقل (مرحلة التأسيس الأكاديمي):

قسم **توماس بنيمان** تاريخ الأنثروبولوجيا إلى خمس مراحل وفترات رئيسية إذ يعتبر **بنيمان** الأنثروبولوجيا قبل عام 1835 تقريبا قد مرت بمراحل تمهيدية منذ العصور القديمة كما سبق تفصيله في العناصر السابقة، فالأنثروبولوجيا لم تبرز كفرع جديد للمعرفة في نظره إلا من خلال الفترة من عام 1835 حتى 1859، أما خلال الفترة 1859 إلى 1900 أي إبان نصف قرن تقريبا على حد تقسيمه– فقد تأسست الأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي، تلي ذلك المرحلة الرابعة مع أوائل القرن العشرين واستمرت حتى منتصف الثلاثينات (1935) وفيها مرت الأنثروبولوجيا بمرحلة التأصيل، أما المرحلة الخامسة التي بدأت منذ عام 1935 حتى نهاية الخمسينات تقريبا فهي ولا شك مرحلة التدعيم والتثبيت لعلم الأنثروبولوجيا وتخصصاته المتعددة.

1. الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر (مرحلة النشأة الأكاديمية):

– أصبحت الأنثربولوجيا ذات طابع علمي متميز خلال القرن 19، فمع مطلع هذا القرن اهتم عدد من الباحثين بدراسة الحفريات والبقايا التي وجدوها في مناطق جغرافية مختلفة، قادتهم إلى الإيمان بوجود التنوع البشري بين مختلف الشعوب والمجتمعات، وقد ساعدهم في ذلك تقدم المناهج والتقنيات في البحوث الجيولوجية والأركيولوجية، والتي كشفت عن عمر الأرض التقريبي وبرهنت على أنها أقدم بكثير مما كان يُعتقد (حيث تم العثور على أدوات حجرية وأدوات أخرى تعود إلى عشرات الآلاف من السنين).

– يرى الباحثون أن القرن التاسع عشر ميلادي هو التاريخ الفعلي لتأسيس علم الإنسان، حيث بدأت الكتب القديمة في الأنثروبولوجيا بالظهور في أوروبا وأمريكا، وكان أبرز تلك الكتب كتاب **هنري ميـــن** "**القانون القديم**" عام 1861 وكتابه عن "**المجتمعات القروية في الشرق والغرب**" عام 1861 وكتاب **باخوفن** عن "**حق الأم**" في عام 1861 وكتاب **فوستل دوكولانج** عن "**المدينة القديمة**" عام 1864 وكتاب **ماكلينان** عن "**الزواج البدائي**" عام 1865، وكتاب إدوارد تايلور

بعنوان "الثقافة البدائية" سنة 1871، **هنري لابوك** في كتابه "**أصل الحضارة**" ، **وماك لينان** في مقاله "**الزواج البدائي**" المنشور سنة 1857. وغيرها من الأعمال؛ ففي هذا القرن أصبحت المجتمعات البدائية مجال البحث الرئيسي في الأنثروبولوجيا "التقليدية" بدلا من تفكير وتأملات الأنثروبولوجيين الأوائل، واستهدف علم الإنسان على أيدي هؤلاء الكشف عن القوانين العامة التي تحكم تطور المجتمعات البشرية

- ***الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية:***

– كان للاكتشافات الجيولوجية ووعلماء الآثار الأثر البالغ في نشأة وتطور الأنثروبولوجيا، حيث شهدت أوروبا خلال النصف الأول من القرن 19 دراسات جيولوجية وتنقيبية مكثفة، عثر من خلالها على بقايا عظمية في الكثير من الأماكن في المناطق الأوروبية، فقد أثبت العالم الفرنسي "**بوشي دي بيرت**" سنة 1830 وجود الإنسان في أوروبا خلال العصر الجليدي، بعد عثوره على أدوات حجرية في **وادي** "**سوم**"، تلتها العديد من الدراسات التنقيبية التي قدمّت معلومات هامة عن ثقافات العصر الحجري وميّزت لأول مرة بين ثقافات العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. كما عُثِر على أول دليل مباشر على وجود الإنسان القديم في ألمانيا سنة 1865، أطلق عليه تسمية إنسان "**نياندرتال**" نسبة إلى القرية التي عُثِر عليه فيها، حيث كانت هذه الاكتشافات والدراسات بمثابة الركيزة التي ارتكز عليها كل من الأنثروبولوجيا وعلم الآثار فيما بعد.

- ***الأنثروبولوجيا التقليدية وعلاقتها بالاستعمار ودراسة المجتمعات البدائية:***

ارتبطت الأنثروبولوجيا التقليدية منذ نشأتها في القرن التاسع عشر بدراسة ما سُمّي بالمجتمعات البدائية، حتى أصبحت تُعرف بعلم دراسة "الآخر". وقد كان هذا الارتباط نتيجة عدة عوامل أهمها:

1. علاقة الأنثروبولوجيا المبكرة بالاستعمار:

– نشأت الأنثروبولوجيا في نفس الفترة التي توسّعت فيها الحملات الاستعمارية الأوروبية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

– استعانت الدول الاستعمارية بالإثنوغرافيين لجمع معلومات دقيقة حول عادات وثقافات وتنظيمات الشعوب المستعمَرة.

– استُخدمت هذه المعطيات لفهم نقاط القوة والضعف عند السكان الأصليين، بهدف السيطرة عليهم وتسهيل إدارة المستعمرات.

– هذا الاستخدام السياسي جعل كثيرين يصفون الأنثروبولوجيا بأنها "علم استعماري" ظهر وتطور داخل السياق الاستعماري.

2. أسباب الاهتمام بالمجتمعات البدائية:

– الاعتقاد السائد آنذاك بأن هذه المجتمعات تمثل مرحلة مبكرة من التطور البشري، وأن دراستها تكشف الماضي الذي مرّت به أوروبا نفسها.

– فكرة أن فهم الحاضر لا يتم إلا بالرجوع إلى الماضي، وبالتالي فالشعوب البسيطة تُعد نموذجًا حيًا لماضي الحضارة الغربية.

– سهولة دراسة هذه المجتمعات لصغر حجمها وبساطة نظمها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، مما يسمح بتطبيق المنهج الإثنوغرافي والملاحظة بالمشاركة بدقة.

3. توظيف الفكر التطوري في تبرير الاستعمار:

– كانت النظريات التطورية تُصنّف الشعوب المستعمَرة باعتبارها "متخلفة" أو "همجية"، مقابل تفوق المجتمعات الأوروبية.

– استُخدم هذا التصنيف لتبرير الاستعمار باعتباره "مهمة حضارية" تهدف لنقل هذه الشعوب من التخلف إلى التحضر.

– هكذا اختلطت الدراسات العلمية بالدوافع الإيديولوجية، فصار ظاهرها بحثيًا وباطنها مشروعًا استعماريًا.

- ***دور الجمعيات والمجلات العلمية في التأسيس للأنثروبولوجيا:***

– كان لكل من الجمعيات والمجلات العلمية دورًا هامًا في بلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية، حيث كانت البداية من خلال الكثير من المنخرطين في جمعيات عامة كانت تضم رجال العلم والفكر والسياسة، قاموا من خلالها بتمويل الكثير من البحوث والدراسات الأكاديمية، لتظهر بعدها الجمعيات الأنثروبولوجية المتخصصة، والبداية كانت في باريس سنة 1800 مع **جمعية ملاحظو الإنسان**، ثم تلتها تأسيس **الجمعية الإثنولوجية** في باريس كذلك سنة 1839، ثم **الجمعية الامريكية الإثنولوجية** سنة 1842، ثم **المعهد الملكي الأنثروبولوجي** في بريطانيا سنة 1843، كذلك **رابطة تقدم العلوم** في كل من بريطانيا سنة 1846 وأمريكا سنة 1852، حيث لعبت دورًا هامًا في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية ومناقشتها. لتعرف بعدها أوروبا موجة كبيرة من تأسيس الجمعيات الإثنولوجية، حيث تم تأسيس ما يزيد عن 40 جمعية عام 1870 في كل من موسكو ومدريد وبرلين وفيينا؛ بحيث ظلت أغلب تلك الجمعيات قائمة إلى غاية عصرنا الراهن.

– ومن جهة أخرى، ساهمت المجلات العلمية التي نشأت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من أوروبا وأمريكا في زيادة الاهتمام بالمواضيع الأنثروبولوجية والتأسيس لعلم الإنسان كعلم قائم بذاته، نذكر من بين هذه المجلات: **المجلة الألمانية** سنة 1859 اهتمت بالبحوث النفسية والسلالية، **مجلة الأنثروبولوجيا** في فرنسا سنة 1872 اهتمت بالأنثروبولوجيا الطبيعية، **مجلة الحوليات** بفرنسا سنة 1898 أسسها وترأسها دوركايم ثم مارسيل موس بحيث اهتمت بالقضايا الاجتماعية والمواضيع الإثنولوجية، **ومجلة الإنسان** في إنجلترا. إضافة إلى الجرائد اليومية والمجلات الثقافية التي ساهمت في زيادة اهتمام الناس بما يجري من حوار علمي حول قضايا الإنسان وأصله وماضيه والاكتشافات الأثرية، وبذلك ازدادت شعبية الأنثروبولوجيا ومهّد لقبولها كعلم جديد.

- ***دور الحكومات والمتاحف والجامعات في التأسيس للأنثروبولوجيا:***

– موّلت الحكومات في الولايات المتحدة وأوروبا بعض المؤسسات البحثية التي قامت بإجراء دراسات إثنوغرافية شاملة وواسعة على الهنود الحمر لرسم السياسة الاستيطاني والإدارية بهذه الشعوب.

– ساهمت المتاحف في تعزيز الاهتمام بالأنثروبولوجيا وثقافات الشعوب المختلفة من خلال عرض الكثير من مخلفات الشعوب المختلفة وآثارهم، إضافة إلى الحفريات البشرية للإنسان القديم، مما يدخل في صلب الأنثروبولوجيا الثقافية والفيزيقية، كما أن اشتغال الكثير من علماء الأنثروبولوجيا في إدارة المتاحف قد سمح لهم بتطوير بعض النظريات الأساسية في الأنثروبولوجيا.

– ربطت الجامعات برامجها بمقتضيات المتاحف، وبدأت الأنثروبولوجيا تجد معالم لها ضمن المجال الأكاديمي تدريجيا مع أواخر القرن 19، حيث بدأت تلوح معالم الاستقلالية الأكاديمية للأنثروبولوجيا والتخصص المهني، وتوج ذلك بأول **كرسي لأستاذية الأنثروبولوجيا الاجتماعية** الذي كان من نصيب **إدوارد تايلور** بجامعة **أوكسفورد** سنة 1884.

2. الأنثروبولوجيا في القرن العشرين (مرحلة النضج):

بلغت الأنثروبولوجيا مع مطلع هذا القرن مرحلة التخصص والنضج، وذلك نتيجة تلاحم مجموعة من الأحداث والمظاهر التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

– الفصل الواقع بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، مع تراجع الدراسات الحقلية (الميدانية) عن المجتمعات البدائية، أي نقص التركيز على المجتمعات البدائية، والدراسات التي تم إجراؤها أصبحت أكثر نضجا من المراحل السابقة.

– النقلة النوعية التي جاء بها تطبيق العالم البريطاني **هادون** المنهج الإثنوغرافي المتعارف عليه حاليا في دراسته الميدانية، حول منطقة "توريس" في المحيط الهادي (بعثة كامبردج إلى مضايق توريس)، رفقة ثلة من العلماء والأنثروبولوجيين، حيث استغرقت الدراسة عامين (1898–1899)، وبعدها عيّن هادون أستاذًا للأنثروبولوجيا في جامعة كامبردج. وكوّن الكثير من الأنثروبولوجيين برز منهم على سبيل المثال لا الحصر كل من **سلجمان** و**ريفرز** واللذان بدورهما كونا الكثير من الأنثروبولوجيين الأفذاذ في مجال الدراسات الميدانية الحقلية.

– بلوغ عمق وتركيز الدراسات الحقلية إلى الذروة، على يد كل من العلماء **راد كليف براون وبرونسلاو مالينوفسكي وإيفانز بريتشارد**، من خلال تركيزهم على تعلم لغة المجتمعات المدروسة وتطبيق تقنية الملاحظة بالمشاركة (المعايشة)، استطاعوا من خلالها الوصول إلى نتائج أكثر عمقًا وصدقًا وموضوعية؛ ثم شروع مالينوفسكي بداية من سنة 1924 في تدريب مجموعة من الأنثروبولوجيين الأفذاذ في مجال الدراسات الحقلية، مما كان له الأثر البالغ على تطور المنهج العلمي في مجال الأنثربولوجيا.

– وبذلك انتقل الاهتمام الأنثروبولوجي مع بداية النصف الثاني من القرن 20، في الدراسات الاجتماعية والثقافية من البحوث التاريخية والتطورية، إلى الدراسات الحقلية والميدانية المتزامنة، وأصبحت بذلك الأنثروبولوجيا علمًا مستقلا قائما بذاته، له مناهجه ومواضيعه وأهدافه، وأخذ في التطور تبعًا لتطور منهج وأدوات البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية جمعاء، وانتقل بذلك موضوع الأنثربولوجيا من دراسة الآخر (المجتمعات البدائية) في الأنثربولولوجيا التقليدية، إلى الاهتمام بالمجتمعات المعاصرة (خاصة الأوروبية) في الأنثربولوجيا المعاصرة، كما سمح الالتقاء مع التخصصات العلمية الأخرى وتطورها، ببلورة وتنوع فروع الأنثروبولوجيا وتشابكها مع هذه العلوم (خاصة البيولوجيا وعلم الاجتماع)، وتنوع المواضيع التي يهتم بها العلم.

– فخلال القرن العشرين ظهرت الأنثروبولوجيا كنظام مهني وعلمي جاد .وتطورت ممارسات البحث الأنثروبولوجي بطرق مختلفة في الولايات المتحدة وأوروبا. وفي ثلاثينيات هذا القرن، اتخذت الأنثروبولوجيا شكلها الحالي كمهنة أكاديمية في الولايات المتحدة تحت تأثير عالم الأنثروبولوجيا فرانز بواس، الذي ساعد على تدريب العديد من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين في القرن العشرين، وواصل العديد من طلبته – بمن فيهم ألفريد كروبر وروث بنديكت ومارغريت ميد – إنشاء أقسام للأنثروبولوجيا في الجامعات في جميع أنحاء البلاد.

إن هذه الرحلة الطويلة في تاريخ الأنثروبولوجيا منذ العصور القديمة إلى غاية القرن العشرين، هي جولة ضرورية في تاريخ العلم، لمعرفة وفهم من أي بدأ هذا العلم وما هي التساؤلات والمواضيع الأولى التي كانت تشغله؟ ثم لمعرفة ما هي أبرز المحطات التاريخية التي ساهمت في نشأة هذا العلم واستقلاليته؟ وغيرها من المعلومات الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل فهم الأنثروبولوجيا والأسس التي تقوم عليها. فلا يمكن فهم حاضر العلم بمنأى عن جذوره التاريخية وامتداداته.

الوحدة الخامسة: الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الأنثروبولوجيا:

أولا. الاتجاه التطوري:

– يمثل الاتجاه أو التيار التطوري اتجاه المدرسة الكلاسيكية في الأنثروبولوجيا، حيث برز هذا الاتجاه في النصف الثاني من القرن 19 (وبالضبط خلال الفترة الممتدة بين 1860–1900)، وقد تأثر رواد هذا الاتجاه بأفكار التطوريين البيولوجيين وبالخصوص البيولوجي البريطاني **تشارلز داروين** ونظريته حول التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي. والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- إن جميع أشكال الحياة تتغير وتنتج أشكالا جديدة باستمرار.
- بعض هذه الأشكال أكثر ملائمة مع الظروف البيئية من غيرها.
- إن الأشكال الأكثر ملائمة للبقاء والحياة تبقى وتستمر، أما الأخرى فيقضى عليها.

– مضمون تحليل داروين الذي ظهر في كتابيه "***أصل الأنواع***" سنة 1859 و"**أصل الإنسان**" سنة 1874، يتمحور حول فكرة أن الخلائق بما فيها الإنسان قد تطورت من **مستويات دنيا** إلى **مستويات عليا متخصصة**، ففي نظريته حول **النشوء والارتقاء**، يرى داروين أن مسار التطور البيولوجي للبشر والكائنات الحية ينطلق من **نفس الأصل** (حيث أن جميع الكائنات الحية نشأت من المادة غير الحية في مرحلة قديمة جدًا من التاريخ الجيولوجي للأرض)، ويستمر عبر **مسار تطوري** (يقوم على الانتقال البطيء من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا ومن الأسوء إلى الأفضل)، عن طريق عملية **الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي** وفق مبدأ **البقاء للأصلح**، فالكائنات الحية التي لديها القدرة على البقاء والتكيف مع الطبيعة تبقى وتتطور بينما تفنى الأخرى التي ليست لديها القدرة على ذلك، حيث تنقل الأولى صفاتها الوراثية المكتسبة إلى أنسالها، فهكذا مع المرور الأجيال تتحول هذه التغيرات البسيطة إلى تغيرات أكبر.

– الأسس التي يقوم عليها التطور البيولوجي حسب داروين هي **الصدفة والانتخاب الطبيعي**، حيث يرى داروين أن الكائنات الحية والحياة قد نشأت صدفة من المادة غير الحية نتيجة سلسلة من التفاعلات الكيميائية النادرة الحدوث لدرجة لن تتكرر بعد ذلك.

تفاعل الأمونيا + أملاح الفوسفور+ الضوء+ الحرارة+ الكهرباء ← ساعد في تكوين مركب من البروتين منه نشأ كائن أحادي الخلية ← ومنه نشأت وتطورت جميع الكائنات الحية المختلفة بما فيها الإنسان والحيوان والنبات (أي أنها جميعًا تعود إلى نفس الأصل)

وفي مسار التطور البشري من الناحية البيولوجية: يرى أنصار التطورية أن الإنسان العاقل (البشر) يمثل أرقى الكائنات الحية، وقد ارتقى هو كذلك عن طريق عملية الارتقاء أو الانتخاب الطبيعي عبر مسيرة تطورية من الشكل الأدنى إلى الأرقى من خلال سلسلة استمرت لملايين السنين وفق المسار والسلسلة التالية:

كائن أحادي الخلية ← تطور إلى كائنات متعددة الخلية ← ثم إلى الحبليات ← ثم إلى الفقريات ← ثم إلى الثدييات ← ثم إلى الرئيسيات ← ثم إلى الإنسان العاقل الذي يمثل أرقى الكائنات في السلسلة البيولوجية.

- **حيث يرى التطوريون أن الإنسان أكثر شبها بقردة العالم القديم (القرد الإفريقي وهو نوع منقرض تم العثور عليه في الحفريات) أكثر من شبهه بقرد العالم الحديث (القرد الأمريكي). كما يرون أن القردة العليا عديمة الذيل (الشبيه بالإنسان) أقرب الأقرباء إلى الإنسان خاصة الغوريلا والشامبانزي.**

– ومن بين الحجج التي يعتمد عليها التطوريون في التأكيد على صحة افتراضاتهم: التشابه الكبير بين الكائنات الحية، التشابه في التركيب العضوي بين الإنسان والحيوانات التي تليه في الرتبة، التشابه في الأنسجة وتركيب الدم، تشابه التكوين الجنيني، وجود بقايات أو مخلفات عصور قديمة في جسم الإنسان، تشابه القوى العقلية، وجود حفريات لكائنات شبيه بالإنسان.

➢ **ومن بين الإنتقادات التي تم توجيهها لنظرية النشوء والارتقاء لدى داروين:**

– العجز عن تفسير سر الحياة (الروح) أي الشيء الذي جعل المادة الجامدة تتحول إلى كائن حي؛

– وجود حلقتين مفقودتين في سلسلة التطور: الحلقة السابقة عن ظهور القدرة وأشباه القردة، والحلقة في الحقبة التي سبقت ظهور الإنسان وأشباه الإنسان؛

– انتقاد مسألة الانتقاء ومتى يكون الإنتقاء، فمثلا عند السمك 99% من البيض يفنى قبل اكتمال النمو وبالتالي لا يكون وفق مبدأ الأكثر قدرة على التكيف والبقاء؛

– كما أن الانتقاء لا يؤدي دائمًا إلى بقاء الأصلح، ففي كثير من الأحيان تبقى كائنات أخرى أقل قوة وقدرة على التكيف والبقاء.

➢ الاتجاه التطوري في الأنثروبولوجيا:

– تأثرت المعارف الإنسانية والاجتماعية بالنظرية التطورية الداروينية، وتم إسقاط وتبني هذا الفكر على دراسة المجتمعات والثقافات في الأنثروبولوجيا، حيث أصبح الاعتقاد الراسخ أن كل ظاهرة موضوع الدراسة لا بد من معرفة أصولها وكيفية نشأتها ومراحل تطورها ومتابعة مساراتها المختلفة. فقد كان همّ الأنثروبولوجيين التطوريين هو فهم الكيفية التي تنشئ وتتطور من خلالها المجتمعات وثقافاتها، فموضوع البحث الأساسي بالنسبة للتطوريين هو **التفسير التاريخي** لمختلف المراحل التي مرت بها البشرية من خلال اكتشاف القوانين التي أتاحت عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وكان التطوريون يعتقدون **بوجود مسيرة خطية واحدة** تسير وفقها المجتمعات البشرية والثقافات والحضارات، وأن كل مجتمع لا بد له من الانتقال من مرحلة إلى أخرى دون مواجهة أشكال أخرى من التطور.

من الأدنى ← مسار خطي حتمي للتطور ← **إلى الأرقى**

– وقد كان المجتمع الغربي حسب أنصار هذا الاتجاه بمثابة **المرجع الأساسي** في قياس درجة تقدم وتخلف المجتمعات، فالمجتمع الغربي يمثل قمة مراحل التطور، وبالمقابل تمثل المجتمعات الأخرى التي تقبع في درجات دنيا من التطور الأصول الأولى للتطور بالنسبة للمجتمع الغربي.

❖ باختصار، يقوم الفكر التطوري في الأنثروبولوجيا على أفكار ومبادئ مفادها:

– أن كل المجتمعات والثقافات والحضارات تتطور من حالة أدنى إلى حالة أرقى وأكثر رقيا؛

– وأن جميعها تمر في تطورها على نفس المراحل (أي أن مراحل التطور هي نفسها في جميع أنحاء العالم)؛

– كل شعب أو حضارة لا بد أن يمر بهذه المراحل بشكل لا يمكن تفاديه (حتمية التطور)؛

– مراحل التطور واحدة في مضمونها وأشكالها.

وقد قامت التطورية في المجال الثقافي على مبادئ أساسية هي: – **الوحدة النفسية للجنس البشري** (أي أن جميع البشر لديهم تركيب نفسي متطابق) – **وحدة التاريخ الإنساني** (أي أن جميع المجتمعات تمر بنفس المسار التاريخي التطوري من الأدنى إلى الأرقى) – **وحدة الثقافة** (أي أن جميع الثقافات هي واحدة والفرق والاختلاف بينها هو اختلاف في المرحلة التطورية التي هي فيها وفي سرعة الانتقال عبر هذه المراحل.

- وقد اعتمد أنصار هذا الاتجاه في اكتشافهم للقوانين التي تحكم عملية التقدم والتطور على **التاريخ التتبعي** من خلال **دراسة الأصول** (أصل المجتمع، أصل الثقافة، أصل المجتمع، أصل الزواج...)، **وتخمين البدايات** (كيف بدأ الدين مثلا) والبحث عن **البقايا أو الرواسب أو المخلفات** أي العادات والنظم والأشكال التي بقيت من المجتمعات البدائية والقديمة ومقارنتها المجتمعات الحديثة وتتبع مسارها التاريخي، ومقارنتها بالبقايا الأثرية والبقايا الاجتماعية، والبحث عن تطورها من خلال دراسة أشكالها لدى المجتمعات البدائية بحثًا عن الأشكال الأولى للحياة البشرية. وكانوا في كثير من الأحيان يلجؤون إلى **التاريخ التخميني** في افتراض هذه الأشكال الأولية وفي تخمين مراحل تطورها وتقدمها في حالة عدم وجود دلائل ملموسة تثبت وجودها الواقعي.

فقد استعار علماء الأنثربولوجيا المفهوم البيولوجي للتطور، وأسقطوه على المجتمعات الإنسانية والثقافات والحضارات البشرية، واعتبروا أن السير الرتيب للمجتمعات الإنسانية، يسير وفق نفس الطريقة والخط والقانون "التطور" ولا يكون اعتباطيًا أو خاضعًا للصدفة، وقد أثّر هذا الاتجاه بقوة في الحقل الأنثروبولوجي، حيث اهتم هذا الاتجاه بدراسة **الأصول**، وتخمين البدايات الأولى للنظم (أصل الدين، أصل اللغة، أصل القانون، أصل الإنسان..)، كما اهتم **بالدراسة التتابعية** من خلال تبع نشأة الظواهر الاجتماعية من حالات بدائية ساذجة وبسيطة إلى أخرى معقدة وأكثر تركيبًا وتطورًا، والتي تبين كيف يحدث التغير في النظم، حيث أكد بعض علماء هذا الاتجاه على سبيل المثال أن تطور الأسرة كان وفق المراحل التالية: الإباحة الجنسية ثم الأسرة الأمومية ثم الأسرة الأبوية ثم الأسرة الزواجية الصغيرة؛ والنظام الاقتصادي كذلك من خلال المراحل: جمع الطعام ثم الصيد ورعي الماشية ثم الزراعة ثم الصناعية.

- **رواد الإتجاه التطوري:**

1/ لويس هنري مورغان (1818- 1883):

كان الأمريكي "**لويس هنري مورغان**" أحد أهم أقطاب هذا الاتجاه من خلال عمله حول القرابة "**أنساق القرابة والمصاهرة للعائلة البشرية**" عام1870، وفي كتابه المجتمع القديم الذي صدر عام 1877 الذي أقر فيه أن كل المجتمعات **تخضع لقانون واحد** خلال عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وبهذا يصل مورغان إلى أن البشرية تطورت عبر ثلاث مراحل تطورية كما يبينه المخطط والجدول التاليين:

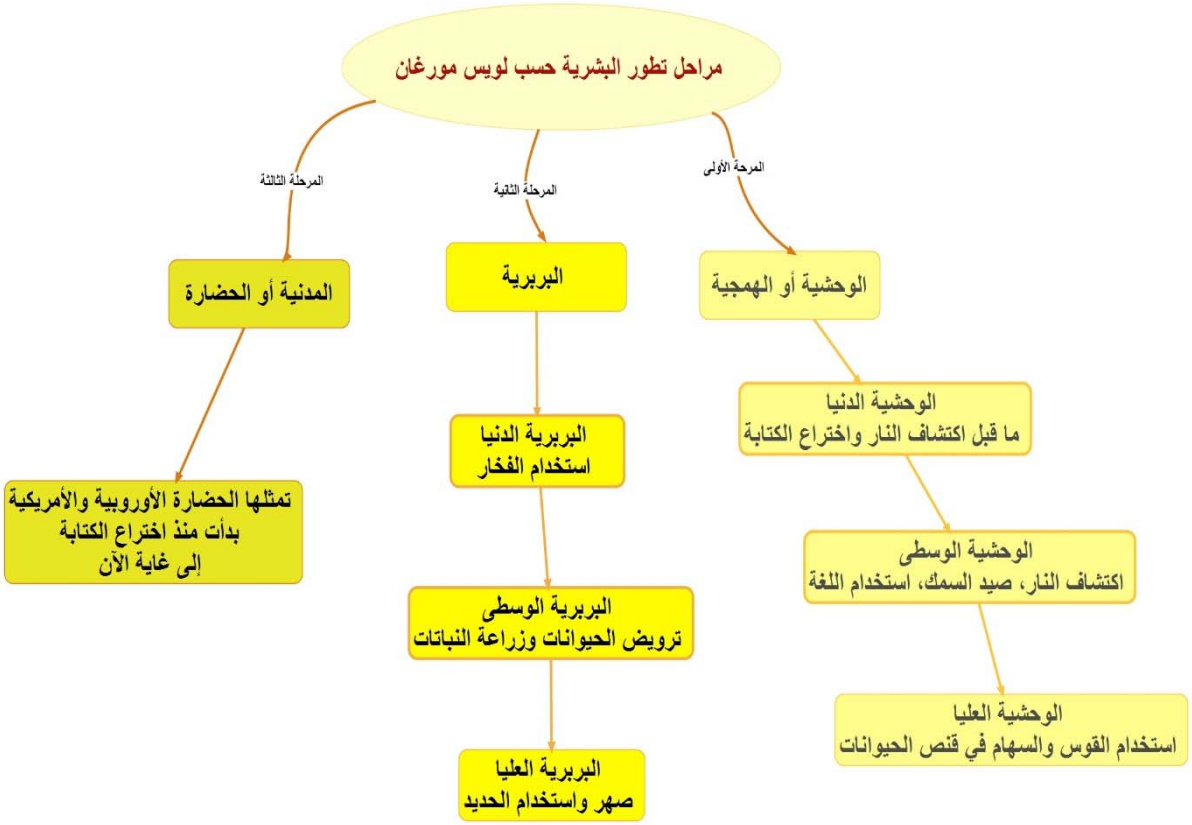

المراحل التطورية		أسلوب الحياة	النظام الاجتماعي	المجتمع الذي يمثل المرحلة
الهمجية (التوحش)	الدنيا	ما قبل اكتشاف النار واللغة/ قطف الثمار والاعتماد على بقايا الجذور للأكل/ بداية الكلام المنطوق.	اختلاط بدائي/ عائلة رحيمية (زواج بين الإخوة والأخوات)	لم يجد مورغان مجتمع يمثل هذه المرحلة
	الوسطى	اكتشاف النار والاعتماد على الطهي/ الاعتماد على صيد السمك/ زوارق من لحاء الشجر/ استخدام اللغة.	عائلة بونالية (زواج تعددي مع زوجات الأخوة/ زواج تعددي مع أزواج الاخوات)	سكان أستراليا الأصليين/ بولينيزيا (جزر بالمحيط الهادي)
	العليا	استخدام القوس والسهام في قنص الحيوانات/ أكل لحوم البشر	ظهور العشيرة أو القوم (جماعة موسعة تربطهم صلات القرابة)	بعض الهنود الأمريكيين
البربرية	الدنيا	صناعة الفخار/ زراعة الحبوب/ أدوات حجرية/ حياكة يدوية.	زواج أحادي لأجل قصير أو طويل بين رجل وامرأة.	هنود الأركواي
	الوسطى	تدجين وترويض الحيونات وزراعة النباتات/ الاعتماد على الري/ منسوجات من الصوف والكتان/ اكتشاف معدن البرونز.	ديموقراطية عسكرية يرأسها رئيس حربي/ بيوت مشتركة.	هنود ZONI وهنود HOPI
	العليا	صهر واستخدام الحديد/ الاعتماد على الطاقة الحيوانية/ اختراع الدولاب والعربات والسفن/ استصلاح الأراضي للزراعة/ هندسة معمارية ومدن.	الملكية الفردية/ عائلة بطريقة تعددية في صفوف الرجال ثم الزواج الأحادي	الإغريق القدماء/ العبرانيون.
المدنية (الحضارة)		منذ اختراع الكتابة والأبجدية إلى غاية الآن	ظهور الدول والمدن	الإغريق والرومان والمجتمعات الحديثة

عنوان الجدول: مراحل تطور البشرية حسب لويس هنري مورغان.

2/ إدوارد بيرنت تايلور (1832-1917):

يعد البريطاني **إدوارد تايلور** من رواد هذا الاتجاه، لقد اهتم تايلور بالثقافة، وهو صاحب التعريف الشهير للثقافة والذي أورده في كتابه "**الثقافة البدائية**" عام1871 ، واشتهر أكثر بدراسة المعتقدات الدينية، فهو يرى أنه في البداية بدأ الإنسان بالتفكير في الروح الملازمة للإنسان ثم تدرج في التفكير حيث اعتقد أن هناك أرواحا تسكن الطبيعة تماما مثل الروح التي تسكن الجسد، وفي الأخير توصل الإنسان إلى فكرة الإله الواحد كمرحلة أخيرة تعبر عن قمة تفكيره.

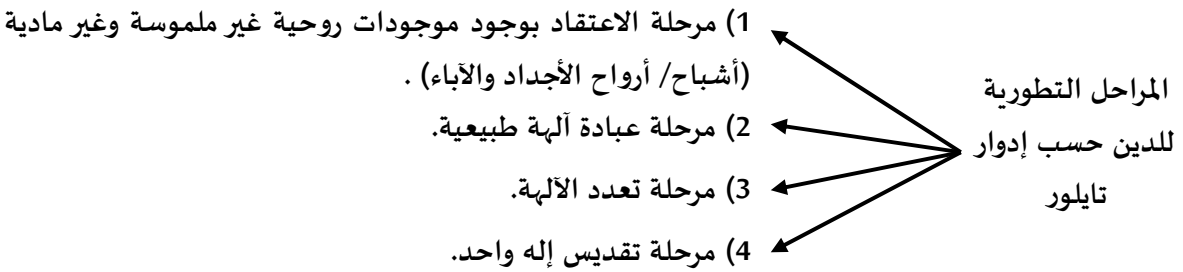

3/ جيمس فريزر (1854- 1941):

أنثروبولوجي اسكتلندي، بحث في مجال الديانات (الأساطير، الألوهية، الإيمان، الخلود والقرابين) حيث وصف في الأجزاء الإثني عشر من كتابه "**الغصن الذهبي Rameau d'or**" بعض الممارسات الدينية والعقائدية التي لاحظها من خلال دراسته وتتبعه لبعض الشعوب أو من خلال دراسات قام بها آخرون. مساهمة فريزر في المدرسة التطورية كان عن طريق نظريته **حول السحر وتطور المجتمعات**، حيث يرى أن المعتقدات الإنسانية تطورت من **مرحلة الإيمان بالسحر** إلى **مرحلة الدين** ثم إلى **مرحلة العلم**؛ حيث اعتقد الإنسان الأول أن بإمكانه السيطرة على الطبيعة بالسحر، ومع الوقت تبين له قصور هذه الطريقة فاتكل على الدين والآلهة وفوض أمره لها، ثم إحتكم إلى العلم في الأخير.

ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه نجد:

- يفرض نموذجًا واحدًا للتطور الاجتماعي والثقافي، مما يجعله يتجاهل التنوع الثقافي والمتغيرات السياسية والاقتصادية وغيرها.
- التمركز العرقي والسلالي حيث وضع أنصار التطورية الإنسان والمجتمع الأوروبي على قمة سلم الارتقاء للجنس البشري، وتأكيدهم على التفوق العرقي الطبيعي للرجل الأبيض مقارنة مع السلالات والمجتمعات الأخرى.
- الاعتماد على التاريخ التخميني، فكثيرا ما كان يلجأ التطوريون إلى الظن والتخمين والافتراض لتأكيد صحة افتراضاتهم، بدلاً من الاعتماد على الوثائق والمستندات المكتوبة.
- من بين الإنتقادات التي وجهت للتطوريين، أنهم يقومون بصياغة النظريات أولا، ثم يقومون بالبحث عن البقايا والدلائل في مختلف البقاع والمجتمعات التي تثبت صحتها، ويقومون بإخفاء الحقائق الميدانية التي تناقض نظرياتهم. وفي حالة وجدوا ثغرات معرفية كانوا يلجؤون إلى التاريخ الظني أو التخميني لملء هذه الثغرات وإكمال بناء نظرياتهم.
- الاعتماد على معلومات غير دقيقة، حيث كانوا يعتمدون على المعلومات التي جمعها الرحالة والمبشرون والعسكريون والإداريون وغيرهم من غير المتخصصين في الأنثروبولوجيا.

- غياب الدراسات الميدانية الحقلية، فأغلب التطوريين لم يعتمدوا على دراسات ميدانية في جمع المادة الإثنوجرافية من المجتمعات التي قاموا بدراستها والكتابة عنها.

لكن رغم هذه الانتقادات والنقائص المسجلة يبقى الاتجاه التطوري من بين أهم الاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا، حيث يعود الفضل للتطوريين في توجيه الاهتمام نحو دراسة الثقافة فقد كان تايلور أول من قدّم مفهوما شاملا للثقافة وخلصه من الخلط الذي كان موجودًا مع مفهوم العرف والسلالة والحضارة، كما كانوا أول من أدرك إمكانية قيام علم لدراسة الثقافة وشيّدوا الأسس الأولى لقيام الأنثروبولوجيا الثقافية. كما نجحوا في استثارة الباحثين للقيام بدراسات ميدانية فيما بعد.

ثانيا. الاتجاه الانتشاري (التاريخي –التجزيئي):

– جاء هذا الاتجاه كرد فعل مناهض للأفكار التطورية، حيث افترض المناهضون للتطور، أن **الاتصال** بين الشعوب المختلفة ينتج عنه بالضرورة **احتكاكا ثقافيا** و**عملية انتشار** لبعض أو كل **السمات الثقافية (الحضارية)** لمختلف الشعوب، وهو ما ركز عليه رائد المدرسة الجغرافية الألمانية **فريدريك راتزل**، حول أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية (الرحلات التجارية، الهجرة، الحروب والغزو، الكشوفات الجغرافية ..) بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري.

– ومن أهم مبادئ الانتشاريين، أن انتشار أي عنصر يتطلب توافر **الاحتكاك والوقت**، مما يساهم ذلك في انتشار بعض العادات والتقاليد وغيرها من العناصر الثقافية؛ بمعنى انتقال نظام أو نموذج ثقافي من مجتمع لآخر، مع الأخذ في الاعتبار الحواجز المانعة لهذا الانتشار، والتي تتلخص في **الحواجز الطبيعية** (العزلة في الصحراء أو الجبال أو البحار)، و**حواجز اجتماعية** خاصة بالانتشار الثقافي الديني والعقائدي، دون نسيان أهمية **العوامل النفسية** في فرض حواجز الانتشار الثقافي، فهي من أهم الحواجز المقاومة لانتشار العناصر الثقافية، لكونها متوقفة على مدى تقبل البيئات الثقافية المعنية بالانتشار واستقبال الثقافة الخارجية.

– تتوقف **سرعة الانتشار** على حجم المجتمع ومساحته ومدى تأثيره بالمجتمع الذي يحتك به، دون إغفال أنواع أخرى من الانتشار، مثل **الانتشار العمدي أو المقصود** (نشر ثقافة المستعمِر على المحتَل)، و**الانتشار بالصدفة** بفعل التأثر بمجتمع آخر. والانتشار الذي يتم نتيجة **الاحتكاك المباشر** بين الثقافات المختلفة، والانتشار الذي يتم نتيجة **الاحتكاك غير المباشر** عن طريق الكتب أو التكنولوجيا والوسائط المختلفة.

– ومن خلال أسلوب **التتبع التاريخي** لنشأة النظم الاجتماعية والثقافية، يؤكد الانتشاريون أن لكل نظام اجتماعي وثقافي **بدايات وأصول انتشرت منه**، وانتقلت إلى مختلف المجتمعات بفعل **الاحتكاك والهجرة والتواصل** بين الشعوب، رغم فقدانها لبعض خصائصها عند امتزاجها بثقافات أخرى محلية.

– يؤكد الانتشاريون أن لكل شعب تراثه الثقافي المميز له، وأن التطور الثقافي ليس خطيا، وليس بالضرورة أن يكون هناك ثقافة واحدة تتطور بين مختلف الشعوب.

- وانقسم أنصار هذه النظرية إلى ثلاث مدارس مختلفة، يكمن الاختلاف بينها في نظرتها إلى أحادية أو تعدد المراكز الثقافية والحضارية التي نشأت فيها الحضارة وانتقلت بعدها إلى باقي أنحاء العالم، وتتمثل في:

1) المدرسة البريطانية (أحادية المنشأ) :

عرفت **بأحادية المنشأ** أو مدرسة **المصدر الوحيد**، والتي ترى أن الحضارات كلها ذات منشأ واحد يختلف من فترة زمنية إلى أخرى، حيث تبدأ من **منبع واحد** ثم تنتشر السمات الثقافية عن طريق الاحتكاك إلى باقي المجتمعات الأخرى، ومن أبرز ممثليها **إليوت سميث/ وليام جيمس بيري/ وليام هالس ريفرز**، فحسبهم أن **أصل الثقافات هو الثقافة المصرية القديمة**، وبتوفر الظروف الملائمة وزيادة الاتصالات، انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية واتسعت دائرة وجودها وتوزعت إلى باقي المجتمعات العالمية الأخرى. وقد اعتمدوا بشكل أساسي على تتبع الآثار التي وجدت في أنحاء العالم وكانت تشبه الآثار المصرية (مثل طرق الزراعة، الأهرامات، عبادة الشمس)، فقد افترضوا أن الشعوب الأخرى غير المصرية **لم تكن لها القدرة على الإبداع والاختراع والابتكار** مما دفعها إلى **الاستعارة والتقليد** من الحضارة المصرية.

2) المدرسة الألمانية النمساوية (تعددية المنشأ) :

التي جاءت بفكرة **تعددية المنشأ** وتسمى أيضا **مدرسة المهاد الثقافية**، حيث رفض رواد المدرسة على رأسهم ***ويليام شميدت / فريتز جرابنور / كوبرز*** فكرة المنشأ الواحد للحضارة، وافترضوا بدلا من ذلك وجود **مراكز حضارية أساسية متعددة** من جهات متفرقة في العالم، نشأت ضمنها السمات الثقافية في العالم ثم انتشرت إلى باقي مناطق العالم، وعند التقاء الثقافات والحضارات الأساسية المرتبطة بالمراكز الحضارية فإنها تخلق **دوائر ثقافية** تضم سمات مشتركة ومختلطة لهذه الثقافات المركزية، بحيث تتصهر هذه السمات وتشكل تشكيلات مختلفة عن السمات الأصلية، وهو ما يفسر اختلاف تلك الثقافات عن الثقافات المركزية. كما افترضت هذه المدرسة هي الأخرى عجز الشعوب (غير شعوب المراكز الحضرية) عن الإبداع والابتكار والاختراع.

3) المدرسة الأمريكية:

أكدت على نشأة الثقافة من **مركز جغرافي واحد**، ولكنها شكلت **مراكز متعددة وموازية** لها، وأصبحت تتمتع **بالقدرة على إنتاج أشكال ثقافية مختلفة تماما عن أصلها**، بمعنى صرحوا بإمكانية **ابتكار وإبداع** الثقافات الأخرى لسمات جديدة (عكس المدرستين السابقتين). ومن أهم روادها **فرانز أوري بواس/ كلارك ويسلر/ كروبر /كلاكهون**. حيث عملوا على **تجزيء العناصر المكونة للثقافة** كل على حدة ثم **دراسة تاريخ وهجرة** هذه العناصر عبر المناطق والشعوب المختلفة واستعارتها بين هذه الشعوب عن طريق الاتصال بينها، كما يعود الفضل لأصحاب هذه المدرسة في الترويج لفكرة تعدد الثقافات وتنوعها (النسبية الثقافية). فقد أكد أنصار هذه المدرسة كما هو الحال مع المدرستين السابقتين أن عملية الانتشار هي الأساس لانتقال السمات الثقافية بين مختلف الشعوب والحضارات، لكنها تختلف عنهما في مسألة قدرة الشعوب الأخرى (غير شعوب المراكز الحضارية) على الإبداع والابتكار، فهي ترى أن لهذه الشعوب القدرة على الإبداع والابتكار وخلق وتطوير سمات ثقافية تختلف عن السمات الأصلية التي استعارتها من الثقافات الأصلية.

1-3) كلارك ويسلر ونظرية المنطقة الثقافية ضمن المدرسة الأمريكية:

يعتبر كلارك ويسلر (1870- 1947) من أبرز رواد المدرسة الإنتشارية الأمريكية، ومن أهم إسهاماته في المدرسة الأمريكية تطوير مفهوم "**المنطقة الثقافية Zone culturelle**"، هاته الأخيرة تعني"المنطقة الجغرافية التي يوجد فيها قدر معقول من التشابه الثقافي، والهدف من وضع هذا المفهوم هو تصنيف وتقسيم ثقافات العالم حسب تشابهها إلى مجموعات ثقافية لفهم مصدر الثقافة والوقوف على مدى تشابه عناصرها في بعض المجتمعات المتجاورة. حيث عمل ويسلر ضمن أحد المتاحف واهتم بجمع الآثار والمخلفات المتعلقة بالحضارات القديمة، وطوّر مفهوم المنطقة الثقافية من خلال جمعه للكثير من العناصر والسمات الثقافية وتوزيعها حسب المناطق الجغرافية التي تنتمي إليها، حيث اتخذ المنطقة الثقافية

كأداة لتصنيف الثقافات من خلال مجموعة من العناصر الثقافية بالنظر إلى الأقاليم الجغرافية التي تنتمي إليها، سواء كانت السمات والعناصر الثقافية المادية (أدوات، أواني، مساكن، لباس...) أو غير مادية (طريقة التنظيم، العادات، التقاليد، المعتقدات، الطقوس والممارسات...)، وبعد توزيعه لهذه السمات على المناطق والأقاليم الجغرافية اكتشف أنها تميل للتجمع في مناطق جغرافية معينة (أقاليم) سمّاها **المناطق الثقافية**، فعلى سبيل المثال اكتشف لدى شعوب وقبائل سكان أمريكا الأصليين وجود 15 منطقة ثقافية موزعة على أقاليم مختلفة. واعتمد على المبادئ التالية في تصنيف المناطق الثقافية:

– كل شعب من الشعوب أو من قبائل المنطقة الثقافية يتميز بوجود العناصر والسمات الثقافية المميزة للمنطقة بدرجة تقل أو تزداد من شعب إلى آخر (أي أن جميع شعوب المنطقة ليست متطابقة ثقافيا)؛

– بعض شعوب أي منطقة ثقافية (وفي الحالات المثالية، تلك الواقعة في المركز الجغرافي أو قريبا منه) تتميز **بكل** العناصر والسمات الثقافية المميزة لتلك المنطقة أو **غالبيتها العظمى** على الأقل؛ توصف تلك الثقافات بأنها **طرازية** أو **ممثلة** للمنطقة وتمثل **المركز الثقافي** لتلك المنطقة الثقافية؛

– باقي شعوب المنطقة الثقافية (وفي الحالات المثالية، تلك التي تتجمع خلف منطقة المركز الجغرافي) تتميز بقدر أقل من العناصر والسمات الثقافية المميزة لتلك المنطقة الثقافية، ويتقلص عدد تلك العناصر والسمات تبعًا لدرجة بعد هذه الشعوب عن المركز الثقافي للمنطقة الثقافية؛

– الشعوب التي تعيش على حافة المنطقة الثقافية أو على الحدود مع مناطق ثقافية أخرى تكون ذات ثقافات **هامشية أو مختلطة**، بحيث تكون عناصر وسمات ثقافتها مشتقة من أكثر منطقة ثقافية وتمثل **الهامش الثقافي** للمنطقة الثقافية.

➢ **ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه بصفة عامة نجد:**

- **التبسيط الزائد:** يعتبر بعض النقاد أن الاتجاه الانتشاري يقوم بتبسيط التفاعلات الثقافية وتأثيرات الانتشار، دون مراعاة التنوع والتعقيدات الفردية للثقافات؛
- **تجاهل السياق المحلي:** يتهم الاتجاه الانتشاري بتجاهل السياق المحلي والظروف الخاصة التي ينشأ فيها التفاعل الثقافي، مما يؤدي إلى تقديم تفسيرات سطحية وغير دقيقة؛
- التركيز على تشابه شكل الثقافات المتمايزة دون النظر إلى ما تحمله من معان مختلفة، والتفسير الأحادي لعملية التغير والتطور الثقافي بإرجاعه إلى الانتشار أو الاقتباس الناتج عن الاحتكاك بين الشعوب والمجتمعات دون الأخذ بالعوامل الأخرى؛
- إهمال قدرة الإنسان على الاختراع في كل المجتمعات على حد سواء، وقصر النظرية عن تقديم تفسير لكيفية انتقال العناصر الثقافية بين الشعوب والقبائل خاصة المتباعدة عن بعضها زمانيا أو مكانيا.

- الثقافة= مجموع النظم والعادات والتقاليد في مجتمع أو جماعة معينة
- النظام الثقافي= مجموع النماذج أو المركبات الثقافية المترابطة والمتفاعلة (مثلا النظام الديني :الطقوس، الشعائر، الدور الاجتماعي للمؤسسة الدينية، رجال الدين)
- النموذج الثقافي= عدد من السمات الثقافية المترابطة، وهو نمط متكرر من السلوك أو التفكير يتفق عليه أفراد ثقافة معينة (مثلا: نموذج الاحتفال بالزواج :الخطوبة، العرس، الغناء والرقص الشعبي)
- السمة الثقافية= هي أبسط وأصغر وحدة أو عنصر في الثقافة، أي عنصر ثقافي واحد يمكن عزله وتحليله. (مثلا: ارتداء "البرنوس" في الأعراس أو المناسبات)

ثالثا. الاتجاه البنائي الوظيفي:

– جاء هذا الاتجاه كردة فعل عن الاتجاهات التي تبحث في أصل الثقافات (لاسيما الاتجاه التطوري والانتشاري)، وتعود بواكير هذا الاتجاه إلى **مونتيسكيو**، إلا أن فضل توجيه انتباه الأنثروبولوجيين إلى التحليل الوظيفي ومن ثم البنائي يعود خاصة إلى **هربرت سبنسر** و**إيميل دوركايم، اللذان شبها المجتمع الإنسان بالكائن الحي من حيث البناء والوظيفة،** فالمجتمع حسبهما ينمو ويتطور بإطراد كما هو الحال بالنسبة للكائن الحي، كما أن تقسيم العمل فيه يتم تماما كما تتوزع الوظائف العضوية في البناء العضوي.

– تُعنى النظرية الوظيفية أو الاتجاه الأنثروبولوجي الوظيفي بدراسة ما تؤديه **العناصر الثقافية والاجتماعية من وظائف ضمن البناء الاجتماعي والثقافي الشامل،** فيسعى الوظيفيون في مقاربتهم للظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية إلى **مبدأ التفتيت،** أي تجزئة الظاهرة إلى عناصر صغرى ومتابعة ما يؤديه كل عنصر من وظيفة سواء في إطاره المحدد أم في علاقته مع العناصر الأخرى وفق **قانون التفاعل والانسجام الوظيفي** ضمن **السياق الاجتماعي أو الثقافي أو الاقتصادي أو السياسي أو الديني.**

– رواد المدرسة الوظيفية يدرسون الثقافة وفق مبدأ **التكامل الثقافي،** فهم يرون أنه لا يمكن فهم أي نظام أو نموذج أو سمة ثقافية بمعزل عن الأنظمة والنماذج والسمات الثقافية الأخرى، لذلك يرون أنه من واجب الأنثروبولوجي دراسة العلاقات المتبادلة والتأثير المتبادل بينها. من خلال تحديد علاقة كل سمة بالسمات الاخرى أي تحديد **الدور والوظيفة** الذي تقوم به داخل النموذج أو النظام الثقافي، وذلك لا يكون إلا بالبحث عن **الوظيفة الحقيقية** للسمة الثقافية (والتي تكون كامنة وغير واضحة وتختلف عن الوظيفة الظاهرة لها)، فالوظيفة الحقيقية لا تتضح إلا من خلال الدراسة الأنثروبولوجية. فمثلا كل من الحناء والخاتم والفستان والوليمة وغيرها من مظاهر الزفاف، كلها سمات ثقافية لكن لكل سمة منها دور ووظيفة يختلفان عن دور ووظيفة الأخرى، وكل سمة لا تعيش وحدها مستقلة في الفراغ بل هناك صلات وتأثيرات متبادلة بينها. كما تختلف وظيفة السمة الواحدة من ثقافة إلى أخرى أو من نموذج ثقافي إلى آخر في نفس الثقافة، فمثلا القوس قد يستخدم للدفاع عن النفس أو للحصول على الطعام وقد يستخدم في الطقوس الدينية والسياسية كرمز وقد يستخدم في إشعال النار كما يستخدم للأغراض الموسيقية. فلكي نفهم وظيفة أي سمة يجب أن ندرس علاقاتها بالسمات الأخرى. أي ندرسها ضمن **السياق** الذي تتواجد فيه لا منعزلة.

فالاتجاه البنائي الوظيفي عُرف بأنه لا تاريخي ولا تطوري، فهو لا يهتم بدراسة أصل الثقافات ولا كيف تنتشر. وإنما يهتم بدراستها دراسة آنية ودراسة كيف تعمل الأجزاء التي تكون الثقافة في إطار السياق العام، من خلال البحث عن الوظائف والأدوار التي تؤديها.

– فالبحث الأنثروبولوجي الوظيفي قد اتصف بأنه **لا تطوري، لا تاريخي**، إذ ركز على دراسة الثقافات كل على حدة في **واقعها وزمانها الحالي**، أي دراسة **آنية** لا تزامنية، ويبدو أن ما يميز الاتجاه الوظيفي هو نزول الباحثين إلى الميدان، فالوظيفيون لا يؤرخون للعناصر الثقافية والاجتماعية ولا يبحثون في أصولها التاريخية ولا في منطق انتشارها، وإنما يسعون إلى البحث في وظائفها وفي علاقتها مع بعضها البعض ضمن البناء الاجتماعي والثقافي الذي أوجدها وتطعم بحركتيها وبوظائفها.

– فهذا الاتجاه لا يبحث عن أصل الثقافة ولا كيف تنتشر، إنما يهتم بدراسة **ديناميات الثقافة** (أي كيف تعمل الأجزاء التي تكوّن في مجموعها ثقافة ما)، يبحث في الوظائف التي تؤديها النظم المختلفة داخل الثقافة الواحدة، ويبين الوظائف التي تقوم بها السمات ويدرس علاقة هذه السمات ببعضها البعض وكيف تقوم كل منها بوظائفها، ثم يقارن بين السمات الثقافية المتشابهة الموجودة بين الثقافات المختلفة والوظائف التي تقوم بها داخل تلك الثقافات. فقد رفض رواد هذا الاتجاه المنهج التاريخي، فهم يرون أن الطريقة العلمية لدراسة الثقافات أو الظواهر الإنسانية هي الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الثقافة أو الظاهرة وعلاقتها بغيرها من الثقافات والظواهر، ثم الوصول إلى القوانين التي تحكم الظاهرة من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها.

❖ رواد الاتجاه البنائي الوظيفي:

– يعود الفضل في تطوّر الاتجاه البنائي–الوظيفي في الدراسات الأنتروبولوجية إلى أفكار العالمين البريطانيين "**برونسلاو مالينوفسكي (1884– 1942)**، **وراد كليف براون (1881– 1955)**" اللذين عاشا في أواخر القرن التاسع عشر، والنصف الأوّل من القرن العشرين، وبدرجة أقل "**إيفانز بريتشارد (1902– 1973)**" تلميذ راد كليف براون. وقد تأثر أصحاب هذه النظرية بأفكار عالم الاجتماع الفرنسي "**إميل دوركايم**" الذي ركزّ اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وليس على تاريخ تطوّر هذه المجتمعات والسمات العامة لثقافاتها.

– إذا كان كل من براون ومالينوفسكي وظيفيين في اتجاههما العام من حيث تركيزهما على دراسة البنيات المجتمعية في زمنها الراهن، إلا أنهما اختلفا في نظرتهما لمفهوم الوظيفة، حيث كان مالينوفسكي يهتم أكثر **بمفهوم الثقافة وتحديد الوظائف التي تؤديها**، وفي المقابل اهتم براون أكثر **بالعلاقات الاجتماعية أو البناء الاجتماعي**.

– يرى برانسلاو مالينوفسكي أن وظيفة الثقافة في أي مجتمع من المجتمعات هي **تلبية الاحتياجات البيولوجية للإنسان** (والتي حددها بخمسة احتياجات هي: التغذية، الإنجاب، الراحة البدنية، الأمان والاسترخاء، الحركة والنمو)، حيث تنشأ النظم الاجتماعية لتلبية هذه الاحتياجات، فكل مؤسسة اجتماعية بمثابة عضو يلعب دورًا وظيفيا هاما. فمثلا ينشأ نظام الزواج والأسرة لإشباع الاحتياجات الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، بينما يقوم المسكن والملبس بمكنان الجسم من الحصول على الراحة والتوافق البدني والنفسي. وهو يرى أنه من أجل استمرار الثقافة في أداء وظائفها فمن الضروري أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب مثلا، ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى قيام نظام اجتماعي متماسك متصف بالاستقرار والاستمرارية. فهو يبحث

عن السؤال: **كيف تعمل مجموعة من العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية على تلبية احتياجات الأفراد الجسمية والنفسية؟**

– يرى راد كليف براون أن المجتمعات هي كائنات بيولوجية، بمعنى أن هناك تشابها حقيقيا بين البناء العضوي والبناء الاجتماعي، وما على الباحث إلا أن يدرس عناصر البناء الاجتماعي بغرض الكشف عن تفاعلات هذه العناصر التي تشكل من خلال تفاعلها نسقا قائما بذاته، ثم يقوم بعد ذلك باستنتاج القوانين الوظيفية لمجتمع أو مجتمعات معينة، والانتقال بعدها إلى تعميمات عن طبيعة المجتمعات الإنسانية. وقد ركّز براون على مسألة **البناء الاجتماعي** القائم على العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، فهو يرى أن البناء الاجتماعي هو نسيج متشابك من العلاقات الاجتماعية والتفاعلات بين مختلف النظم الاجتماعية. بينما نظر إلى الثقافة كأنها كائن حي ينمو ويتطور، فكما أن الكائن الحي مكون من خلايا كل يقوم بوظيفة معينة وعن طريق قيام هذه الخلايا بوظائفها يحيا الكائن الحي ويتطور، فكذلك الثقافة كائن حي يتكون من نظم وعادات وتقاليد ونماذج وسمات لكل منها وظيفة تؤديها داخل "الكل" الثقافي الذي يتغير تبعًا لهذه الوظائف. بصفة عامة كان يبحث راد كليف براون عن السؤال: **كيف يمكن الحفاظ على التضامن والتكامل والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين؟**

➢ **ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه نجد:**

- تبسيط الهياكل: ينتقد بعض الأكاديميين الاتجاه البنائي الوظيفي لتبسيطه الهياكل الاجتماعية والتقديرات الوظيفية، دون مراعاة التنوع والتعقيدات الثقافية؛
- تجاهل التغيير: يعتبر الاتجاه البنائي الوظيفي بأنه يتجاهل التغييرات التاريخية والتحولات الاجتماعية، مما يجعله غير قادر على تفسير التطورات والتغيرات في المجتمعات؛
- إهمال الأسس التاريخية: كون التحليل البنائي الوظيفي أهمل تاريخ الإنسان ولم يبحث في أصول أو سيرورة الثقافة؛
- إهمال الجانب الفردي: كما أنه أهمل الجانب الفردي في الفعل الإنساني برده كل سلوك إنساني للأفعال الاجتماعية؛
- إهمال الصراع والتغير الاجتماعي: وتركيزها على التوازن والتكامل، حيث كانت تدرس النظم كأنها في حالة استقرار وثبات دائمين؛
- كما عيب على بعض نتائجها أنها قائمة على التخمين؛
- عدم الاهتمام كثيرا بالمقارنات بين وظائف السمات الثقافية في المجتمعات المختلفة؛
- عدم التفريق في دراسة الوظائف التي تقوم بها السمات والنماذج بين الوظائف الرئيسية والوظائف العرضية؛

وختاما يمكن القول أن الاتجاهات الأساسية في الأنثروبولوجيا تشكل مجموعة متنوعة ومتعددة الأوجه تسعى إلى فهم البناء الاجتماعي والثقافات البشرية وتفاعلها . فالاتجاه التطوري يركز على تطور المجتمعات البشرية وتطورها عبر الزمن، بينما الاتجاه الانتشاري يهتم بانتشار الثقافات وتأثيراتها على مختلف المجتمعات. أما الاتجاه البنائي الوظيفي فيركز على الهياكل والوظائف الاجتماعية في المجتمعات. وهذه الاتجاهات تعكس تنوع الاهتمامات والمناهج في مجال الأنثروبولوجيا، وتساهم في إثراء فهمنا للبشرية وثقافاتها المتعددة.

- المنهج الإثنوغرافي:

– يعتبر المنهج الإثنوغرافي **المنهج المميز** والأكثر استخدامًا في الدراسات الأنثروبولوجية (خاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية)، حيث كان في بدايته خاصًا بالأنثروبولوجيين فقط قبل أن ينتقل إلى باقي العلوم الاجتماعية الأخرى (خاصة علم الاجتماع)، وقد ارتبط هذا المنهج **بالدراسات الحقلية (الميدانية)** التي ظهرت بداية لدى الأنثروبولوجيين الأمريكيين (خاصة فرانز بواس) قبل أن تنتقل إلى بريطانيا ثم باقي الدول الأخرى، وقد جاءت هذه الدراسات الحقلية كردة فعل على أنثربولوجيي القرن التاسع عشر (وبشكل خاص أنصار الاتجاه التطوري)، الذين كانوا يعتمدون بشكل أساسي على كتابات الرحالة والمبشرين والضباط العسكريين والإداريين وغيرهم من غير المتخصصين في الأنثروبولوجيا في دراساتهم وصياغة نظرياتهم، وكان يطلق عليهم تسمية **أنثروبولوجيو المكاتب** أو **الأنثروبولوجيون الكرسيّون** أو **أنثروبولوجيو الكراسي**، كناية عن بقائهم في مكاتبهم وعدم نزولهم للميدان لجمع المعطيات عن الشعوب المدروسة بأنفسهم.

– ظهرت في البداية بعض الدراسات الحقلية مثل دراسة بواس حول **قبائل البافين** في كولومبيا، ودراسة لويس مورغان للإيروكواي، لتأتي **بعثة كامبردج إلى جزر مضائق توريس** لتكون نقطة مفصلية في تحول وتطور الدراسات الحقلية في الأنثروبولوجيا وظهور ونشأة الأنثروبولوجيا كعلم مستقل فيما بعد، حيث تم إرسال عدد من الأنثروبولوجيين وقاموا بدراسة حقلية حول شعوب المنطقة امتدت بين **سنتي 1898 و1899**، كان على رأس البعثة **هادون** الذي برز فيما بعد في مجال الدراسات الحقلية، وكوّن عدد من الأنثروبولوجيين ضمن جامعة كامبردج في مجال الدراسات الحقلية، وبرز ضمن تلامذته كل من **ريفرز** و**سليجمان**، واللذان بدورهما كوّنا عددًا من الأنثروبولجيين برز من بينهم كل من **راد كليف براون** و**برانسلاو مالينوفسكي**، واللذان كان لهما الدور الأبرز (خاصة مالينوفسكي) في إرساء قواعد الدراسات الحقلية والمنهج الإثنوغرافي على أسس متينة. لكن ما يعاب على الدراسات الحقلية الأولى كونها **دراسات سطحية وغير مركزة وغير معمقة**، وذلك بسبب قصر مدة إقامة الباحثين، حيث كانوا يقيمون في المجتمعات المدروسة لمدة لا تتجاوز الشهر أو الشهرين، إضافة إلى جهل الباحثين باللغات الأصلية للشعوب المدروسة، ثم إن عدم توطيد علاقات الباحثين مع السكان المحليين هو كذلك كان من بين العوائق التي أعاقت حصولهم على المعلومات اللازمة.

– لتأتي بعدها دراسة **راد كليف براون** حول سكان **جزر الإندمان** في شمال المحيط الهندي والتي امتدت لسنتين بين عامي **1906 و1908**، والتي تعتبر أو لمحاولة لفحص النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية بالرجوع إلى مجتمع تقليدي معين، من خلال الاتصال المباشر للباحث بموضوع دراسته، فقبلها كان الباحث الأنثروبولوجي كالمؤرخ يعتمد على الوثائق والمدونات كمادة خام في دراسته. ثم الدراسة الأبرز للأنثروبولوجي البريطاني من أصل بولندي "**برونسلاو مالينوفسكي**" حين أقام لمدة أربع سنوات كاملة في دراسته الحقلية عن سكان **جزر التروبرياند** التي تقع في غينيا الجديدة بين سنتي **1914 و1918**، والتي أرسى خلالها قواعد المنهج الإثنوغرافي والدراسة الحقلية في الأنثروبولوجيا، وقدّم مجموعة من المبادئ والخطوات والشروط التي ينبغي على الباحثين الالتزام بها، لازالت هذه القواعد تسري إلى غاية اليوم في مختلف أقسام ومعاهد الأنثروبولوجيا في مختلف أرجاء المعمورة. وكان مالينوفسكي **أوّل** من استخدم في دراسته لغة الأهالي أنفسهم، وعاش بينهم مدة أربع سنوات حيث تقمص نظمهم وطقوسهم وشعائرهم الخاصة، وتوجهت دراسته بالتوصل إلى نظام التبادل المعروف باسم {الكولا} واستخدم في دراسته المنهج الاثنوغرافي التكاملي حيث قام بدراسة شاملة لسائر النظم الاجتماعية التي لها علاقة اتصال بنظام "الكولا". ثم جاء من بعده تلميذه "**إيفانز بريتشارد**" وقام

بدراسة اثنوغرافية لثلاث مجتمعات مختلفة فيما بينها سنة 1927، فدرس مجتمع "**الأزاندي Azade**" الذي ينتمي إلى مجموعة الشعوب السودانية وهو مجتمع يعيش على الالتقاط مع بعض الزراعة البسيطة، ومجتمع " **النوير Nuer** " وينتمي هذا المجتمع إلى الشعوب النيلية بجنوب السودان والمجتمع الثالث هو مجتمع بدوي ببرقة، وهذا الأخير يختلف عن النوير في اللغة، والديانة، والعادات، والتقاليد.

– إن اعتماد أنثربولوجيي القرن التاسع عشر على المنهج المقارن للقيام بالدراسات الأنثروبولوجية، قد إنتابه بعض القصور، فلم يعد المنهج العلمي الأمثل، فالمقارنة التي أجراها الأنثروبولوجيون في ذلك الوقت كانت تقوم على **القراءات الواسعة**، ومحاولة جمع المعلومة من هنا وهناك، خاصة ما ورد في كتب الرحالة، والمبشرين والحكام العسكريين بالمستعمرات، مما جعل من دراساتهم وأبحاثهم تتصف بالسطحية وقلة الضبط. هذا الذي دفع الأنثروبولوجيين فيما بعد للقيام بدراسات إثنوغرافية، وذلك بنزولهم وتنقلهم إلى ميدان الدراسة، والاتصال بالأفراد هناك، والإقامة بينهم لمدة قد تطول حسب الغرض من البحث، وفي هذا المجال يرى " **برانسلاو مالينوفسكي**" أنه يجب على الباحث الأنثروبولوجي، أن **لا تقل مدة إقامته في مجتمع البحث عن سنة كاملة**، وذلك **لتعلم اللغة المحلية** حتى إجادتها، وكذلك تمثل الأنماط والشعائر والطقوس في ذلك المجتمع .

– فقد أكد مالينوفسكي على ضرورة دراسة الشعوب من الداخل وليس من الخارج (أي رؤية طقوسهم وممارساتهم وسلوكاتهم من وجهة نظر الأهالي أنفسهم وفق رؤية وظيفية وليس من وجهة نظر الباحثين)، فهو يرى أنه "**لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لأي شعب من الشعوب إلا إذا درست دراسة مركزة**"، كما دعى إلى ضرورة أن يتخصص كل أنثروبولوجي في **دراسة مجتمع واحد** –**أو على الأكثر ثلاثة مجتمعات**– طيلة حياته البحثية وفق ما يعرف **بتقليد مالينوفسكي**. هذا وقد شدّد مالينوفسكي على ضرورة إجراء **الدراسة المركزة** والنزول إلى الميدان وإجراء الدراسة الحقلية من خلال عيش الباحث لمدة لا تقل عن سنة مع الشعوب المدروسة وجمع المعطيات بنفسه.

- **ومن بين المبادئ والشروط التي يقوم عليها المنهج الإثنوغرافي والبحث الأنثوبولوجي (الدراسة الحقلية) عند دراسة مجتمع تقليدي حسب مالينوفسكي:**

– العيش فترة كافية من الزمن مع المجتمع المدروس (من سنة إلى 3 سنوات)؛ بينما يرى إيفانز بريتشارد أن الفترة الزمنية لا يجب أن تقل عن 6 أشهر على الأقل؛

– دراسة شعب واحد خلال فترة الدراسة، حيث يرى مالينوفسكي –كما سبق وأن ذكرنا– أنه على كل باحث أنثروبولوجي أن يتخصص في دراسة من شعب واحد إلى ثلاثة شعوب طيلة مشواره البحثي؛

– الصلة الوثيقة مع الأهالي طيلة فترة الدراسة، مما يسمح للباحث بمتابعة حياة الجماعة من داخل المجتمع وليس من خارجه؛

– ضرورة تعلم واستخدام اللغة الأصلية (المحلية) للمجتمع المدروس؛

– دراسة الثقافة والحياة الاجتماعية ككل للمجتمع المدروس دراسة شاملة من جميع النواحي؛

– ذهاب الباحث الأنثروبولوجي إلى المجتمع المدروس بمفرده، ويستقر ويندمج معهم بحيث يصبح فردًا منهم يشاركهم تفاصيل حياتهم اليومية وممارساتهم المختلفة؛

– ترك كامل التصورات والأحكام السابقة عن المجتمع جانبًا، ويقطع اتصاله بالعالم الخارجي بصورة تامة ويحصر اهتمامه بالجماعة التي يدرسها.

- **كما يشترط مالينوفسكي في الباحث الأنثروبولوجي توفر جملة من الشروط والصفات التي تؤهله للنجاح في الدراسة الحقلية وتطبيق المنهج الإثنوغرافي والحصول على معلومات صادقة ودقيقة، منها:**

– التكوين الجامعي في مجال الأنثروبولوجيا أو أحد الفروع القريبة منها، بحيث يكون التكوين مزيجًا بين المعرفة النظرية والتدريب الفني الميداني؛

– أن يكون لديه معرفة واسعة بالنظريات والمعلومات العامة في الأنثروبولوجيا وإثنوغرافية المنطقة التي يدرسها؛

– أن يكون لديه هدف علمي واضح لموضوع بحثه وأن يتعلم ما الذي يبحث عنه وكيف يقوم بالملاحظة؛

– أن يتحلى بالتجرد العلمي والموضوعية (والتخلي عن الذاتية والأحكام القيمية) بحيث يلاحظ تقاليد وعادات وممارسات الجماعة ويدرسها ويصفها كما هي في الواقع بلا زيادة ولا نقصان ولا أحكام؛

– أن يتمتع بمجموعة من الصفات الشخصية والمزاج الذي يمكنه من تنفيذ دراسته على أكمل وجه (مثل القدرة على تحمل العزلة والظروف القاسية وغير الصحية في الكثير من هذه المناطق التي تعيش فيها المجتمعات المدروسة/ القدرة على التكيف مع الظروف الجديدة وأسلوب الحياة الغير معتاد نفسيًا وعقليًا ووجدانيًا/ القدرة على تمثل المجتمع في نفسه، والقدرة على أن ينسى نفسه ويتخلى عن مقومات شخصيته).

- خطوات البحث الأنثروبولوجي (الدراسة الحقلية):

يمر البحث الأنثروبولوجي بمجموعة من الخطوات والمراحل التي تسبق الدراسة وأخرى تكون أثناء إجرائها وأخرى تكون بعد نهايتها؛ يمكن إيجازها فيما يلي:

1) ما قبل مباشرة الدراسة:

– اختيار وتحديد الموضوع الذي يريد الباحث دراسته تحديدًا دقيقًا، ثم اختيار المنطقة أو المجتمع الذي يود إجراء تطبيق دراسته حوله؛

– الإعداد البيبليوغرافي: من خلال جمع وقراءة كل ما كتب عن الموضوع أو المجتمع المدروس؛

– كتابة مشروع البحث؛

– إعداد الميزانية؛

– الاستعداد للبحث؛

– اختيار وحدة الدراسة في المجتمع المدروس.

2) مرحلة الدراسة الحقلية (الميدانية): والتي تمتد من ستة أشهر إلى سنوات عديدة.

– الوصول إلى المنطقة ودخول المجتمع المحلي وإرساء العلاقات الأولية مع السكان والاحتكاك بهم والعمل على كسب ودهم وثقتهم قدر الإمكان والشروع والشروع في تعلم لغتهم. وتسمى هذه المرحلة مرحلة البحث السلبي؛

– مرحلة البحث الإيجابي من خلال الشروع في جمع البيانات واستخدام التقنيات والمناهج، وذلك بشكل يومي عن طريق العيش مع السكان ومشاركتهم حياتهم؛

– تدوين البيانات بحيث يحرص الباحث على تدوين كل صغيرة وكبيرة عن ما يلاحظه ويعايشه حتى تلك التفاصيل التي تبدو تافهة، ومن الأفضل أن يكون التدوين في مكان الحادثة وأثناء حدوثها أو على الأقل في أقرب فرصة ممكنة بعد الملاحظة مباشرة حتى لا ينسى أي تفصيل.

3) ما بعد الدراسة الحقلية: بعد استكمال جمع البيانات والمعلومات الإثنوغرافية اللازمة حول الموضوع المدروس، تأتي المرحلة التي تعقب وتلي مرحلة إجراء الدراسة الحقلية وتضم الخطوات التالية:

– التحضير لإنهاء الدراسة من خلال إعلام الأهالي والإخباريين والمتعاونين مع الباحث بقرب إنهاء الدراسة بفترة كافية، والتحضير للسفر وجمع الأغراض والأدوات اللازمة؛

– إنهاء الدراسة في الوقت الذي يرى الباحث أنه استطاع جمع البيانات الكافية حول موضوع البحث لدرجة التشبع؛

– كتابة تقرير الدراسة: بعد عودة الباحث إلى موطنه يشرع في تصنيف البيانات الإثنوغرافية التي قام بجمعها وتحليلها ومحاولة تفسيرها والوصول إلى النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ليقوم الباحث بعدها بكتابة التقرير النهائي للبحث والدراسة.

II- أدوات وتقنيات جمع البيانات في البحث الأنثروبولوجي:

فقبل أن يقوم الباحث بالدراسة الحقلية عليه أن يحدد نوع وشكل المعلومات التي يريد الحصول عليها سواء كمية أو كيفية وأن يحدد الأدوات التي يجمع بها هذه المعلومات، فهناك من البحوث التي يكتفى فيها بأداة أو طريقة واحدة وهناك ما تتعدد فيها الطرق، وسنحاول فيما يلي أن نعرض أهمها:

1/الملاحظة بالمشاركة (الملاحظة بالمعايشة):

يعتبر الأنثروبولوجيون هم أول من مارس الملاحظة بالمشاركة وهذا من خلال **عيشهم في وسط المجموعات البشرية بغية دراستها عن قرب**، ولا تزال هذه التقنية هي الطريقة الأشهر في الأنثروبولوجيا حيث لا نكتفي بملاحظة الناس الآخرين بل نشاركهم، وبهذا فقط نتمكن من تحريك تجاربهم وفهمهم بكل تفصيل. إن للملاحظة بالمشاركة طموحات أكثر من الملاحظة من دون مشاركة لأنها لا تهدف فقط إلى تقديم عناصر عن الوضع، بل إنها **تتطلب الاندماج في مجال حياة الأشخاص** ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الباحث أو إيجاد دور له في المجتمع محل الدراسة، وتطمح كذلك إلى استخراج المعنى الذي يمنحه لها الفاعلين الاجتماعيين.

- وعموما يحدد إيفانز بريتشارد شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة كالآتي:

– أن يكون الباحث مختصا وله رصيد نظري كافي في ميدان الأنثروبولوجيا أو العلوم الاجتماعية.

– أن يتخلى الباحث عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يحقق الملاحظة الموضوعية.

– أن تكون فترة الملاحظة والاشتراك مع أفراد مجتمع الدراسة كافية لجمع المعلومات اللازمة بشكل جيد. ويحدد العلماء هذه الفترة على أقل تقدير بستة أشهر وهناك من يحددها بسنة على الأقل كراد كليف براون ومالينوفسكي.

– أن يعمل الباحث على الحفاظ على علاقات طيبة مع الأهالي طيلة مدة دراسته وهذا من خلال مشاركتهم في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية.

– أن يستخدم الباحث ما استطاع في حديثه لغة مجتمع الدراسة إذ كثيرًا ما يفشل المترجمين في نقل الأفكار والمعاني بدقة كاملة.

– أن يدرس الباحث كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية حتى وإن كان يدرس موضوعا بعينه لترابط المواضيع الاجتماعية فيما بينها.

– عدم التحيز في نقل بعض المعلومات دون أخرى، أي أن لا يخضع العمل لأهواء الباحث بل يجب التحلي بالموضوعية لأقصى حد ممكن وهذا بالإسراع بتدوين المعلومات.

– الحرص حين نقل ووصف وتحليل الثقافة المدروسة من لغة مجتمع الدراسة إلى لغة الباحث نفسه أي أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية والثقافية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح.

فعلى العموم؛ تشير تقنية وأداة الملاحظة بالمشاركة (الملاحظة بالمعايشة) إلى مشاركة الباحث في مختلف النشاطات التي يمارسها أعضاء الجماعة المدروسة، فيتعلم الباحث خلال عيشه وسط هذه الجماعة اللغة التي يتكلمون

بها، ويمارس ما يمارسون من نشاطات وعادات، ويلبس نفس اللباس الذي يلبسون، ويحاول أن يبدي السلوكات والتصرفات نفسها التي يسلكونها في حياتهم اليومية، وهذا حتى يكون قريبا منهم فيسهل عليه فهم نمط معيشتهم وتفكيرهم من جهة، وتسهل عليه أيضا تحصيل المعلومات الخاصة بالدراسة، خاصة إذا استطاع أن يشعرهم أنه قريب منهم بما يزيد من ثقتهم به مما يسهل عملية الحصول على المعلومات.

2/المقابلة:

– تشير المقابلة إلى ذلك الحوار اللفظي الذي يتم بين طرفين هما الباحث والمبحوث، حيث يقوم الباحث بتوجيه مجموعة من الأسئلة للمبحوث من أجل الإجابة عليها، ونجد في أدبيات منهجية البحث في العلوم الاجتماعية عموما أن المقابلة ثلاثة أنواع: المقابلة الموجهة (المقننة) والمقابلة نصف الموجهة والمقابلة غير الموجهة (الحرة)، غير أن النوع الأكثر استخداما في حقل الأنثروبولوجيا هو **المقابلة غير الموجهة (الحرة)**، يتم استخدام المقابلة غير الموجهة من خلال مقابلة الباحث لبعض أفراد المجتمع الذين لهم سمعة طيبة والذين لهم خبرة بموضوع البحث، ولهم أيضا اتصال بهذا الموضوع، ويشترط في الباحث أن يعمل على كسب ثقة المبحوثين من أجل الإدلاء بمعلومات غير مزيفة عن الواقع المدروس – وتعرف هذه الطريقة أيضا والتي يتم فيها استخدام أهل الخبرة في معرفة الواقع المدروس بطريقة " **الاعتماد على الإخباريين**– "، وعليه ألا يعمل على توجيه الإجابة نحو وجهة معينة، ويمكن للباحث استخدام آلات التسجيل بشرط أن يكون قد كسب ثقة المبحوثين، أما إذا أحس أنه لم يكسب ثقتهم بعد فعليه تسجيل المعلومات بطريقة لا تثير الشك .

– أما عن طريقة المقابلة الموجهة والتي يتم خلالها تحديد مجموعة من الأسئلة في استمارة بحث فإنها نادرة الاستخدام في الدراسات الأنثروبولوجية، وهي لا تتناسب مع طبيعة هذه الدراسات لاتصال هذه الأخيرة أكثر بالمجتمعات البدائية التي لا يعرف بعضها القراءة والكتابة من جهة، والتي لم تتعود على مثل هذه الطرق من جهة ثانية، لذلك فإن المقابلة الموجهة هي أكثر اتصالا ببحوث علم الاجتماع الذي يعنى بشكل خاص بالمجتمعات المتمدينة.

3/سيرة الحياة:

– تستخدم سيرة الحياة بشكل كبير خلال الدراسات الأنثروبولوجية، وسيرة الحياة تعبر عن اتجاه الباحث نحو شخص معين غالبا ما تكون له خبرة ودراية بمجتمع الدراسة طالبا منه أن يروي له قصة أو سيرة حياته، غير أن هذه القصة لا تخص شخص الراوي فقط ولكن هذا الراوي مدخل لفهم الجماعة التي ينتمي إليها.

وباعتبار سيرة الحياة نوعا من أنواع المقابلة فإنها تخضع لنفس شروط المقابلة من حيث ضرورة توفير الباحث للجو الملائم للمقابلة من خلال بناء الثقة بينه وبين المبحوث، والتصرف بمرونة حتى يتسنى له الحصول على المعلومات اللازمة.

4/الاختبارات النفسية:

ويستخدم الأنثروبولوجيون بعض الاختبارات النفسية خلال دراساتهم الميدانية من أجل تحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة، ومن هذه الاختبارات اختبار "رورشاخ" نسبة إلى مخترعه السويسري هيرمان رورشاخ، وهو يتكون من عشر لوحات، رسم على كل لوحة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلا غير منتظم، ويطلب من الشخص أن يصف ما يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة، وبناء على هذا يمكن التوصل لتحديد بعض خصائص شخصية الفرد، وتستخدم هذه الطريقة خاصة في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية وخاصة (لدى المهتمين

بالعلاقة بين الثقافة والشخصية)، وأخيرا فإن هناك بعض الطرائق الأخرى التي يمكن أن يستعين بها الباحث الأنثروبولوجي الجماعة المدروسة، لتكون جنبا إلى جنب مع الملاحظة بالمشاركة باعتبارها ملاحظة مباشرة.

5- الاستبيان أو الاستمارة:

هي تقنية تستخدم في جمع المعلومات يعمل بها الأنثروبولوجيون خاصة في المجتمعات أو مع الأفراد القادرين على القراءة والكتابة وذلك من خلال طرح عشرات الأسئلة على المبحوثين تتناول موضوعا محددا أو جوانب عدة من حياة الأفراد بطريقة موجهة ذلك لأن صيغ الإجابات تحدد مسبقا، وقد يحدث أن يوزع الباحث استمارته ثم يجمعها بعد فترة زمنية أو قد يقرأ هو بنفسه الأسئلة على الشخص المبحوث ويسجل إجاباته، مع مراعاة عدم التأثير على المجيب سواء من خلال طريقة القراءة أو التركيز على خيار دون آخر...الخ بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفريغها في جداول ، هذا ما يسمح بالقيام بمعالجة كمية بهدف اكتشاف علاقات رياضية وإقامة مقارنات كمية؛ والمعروف في العادة أن هذه التقنية تستخدم هذه الطريقة مع العينات الكبيرة.

ومن مزايا هذه التقنية : قلة التكلفة، سرعة التنفيذ، تسجيل السلوكات غير الملاحظة، إمكانية مقارنة الإجابات، التطبيق على عينة كبيرة. ومن عيوبها: التزييف الإرادي للأقوال، المعلومات الموجزة أو رفض الإجابة.

- **هذه بصفة عامة أهم الطرق والأدوات المستخدمة في جمع البيانات الأنثروبولوجية، مع الإشارة إلى أن اختيار هذه الأدوات يرتبط بطبيعة موضوع الدراسة ، فهناك مواضيع تستدعي استخدام وسائل خاصة للحصول على معطيات مادية كالآلات الفوتوغرافية وآلات التسجيل بأنواعها ومواضيع تعتمد على جمع وثائق ومخطوطات ومستندات.**